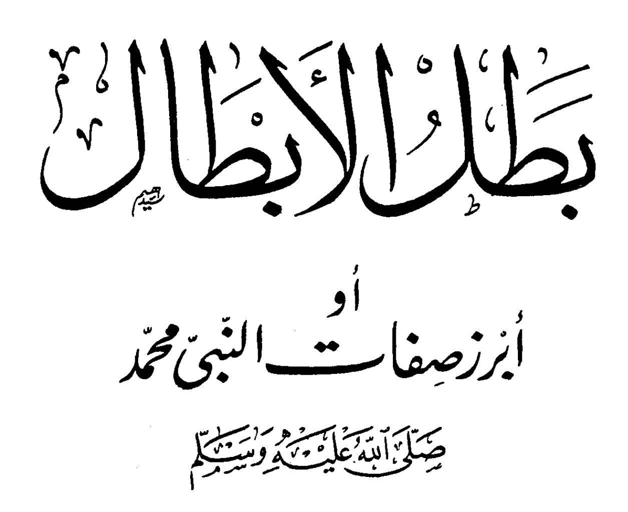


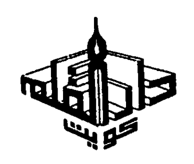
بقلم

عبد الرحمن عزام

الأمين السابق لجامعة الدول العربية

تقـــديم

الأستاذ الإمام الشيخ /محمد مصطفي المراغى
الشيخ الأسبق للجامع الأزهر





طبعة ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م

رقم الإيداع
بدار الكتب والوثائق القومية
٥١١٨ / ٢٠٠٦

الترقيم الدولي I.S.B.N.
977 _ 5502 _ 73 _ X

تقديم

بقلم

المغفور له الأستاذ الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغى

الشيخ الأسبق للجامع الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى

(١)

هذه أحاديث أذاعها الأستاذ عبد الرحمن بك عزام منذ سنتين ، فتلقاها المستمعون بالاستحسان والشكران ، وود كثير منهم أن تنشر ، لينتفع بها من لم يسمعها ، وليتيسر لمن سمعها أن يقرأها متتابعة متصلة ، آخذة حقها من الإمعان والتدبر ، معطية القارئ نصيبه من الفائدة والغبطة .

(٢)

وقد أحسن الأستاذ عبد الرحمن بك عزّام إذ اختار للإذاعة موضوعاً رائعاً جليلا ، فيه من العِبرة والعِظة ، ومن المَثَل والأُسوة ، ما لا ينفَد على طول التفكر والتدبر ، هو سيرة خاتَم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم . وأحسن مرة أخرى حين تناول السِّيرة من الناحية الخلقية ، والناس اليوم أحوج ماكانوا إلى أن يهتدوا بأخلاق محمد ، ويقبِسوا من نوره . تناول السيرة المحمدية ، فبين أخلاق الرسول الكريم ، وفصَّل القول فى صفاته الكريمة ، على قدر ماوسع الحديث ، وأذِن المقام . وزاد إحساناً إذ استخلص هذه السيرة الكريمة من الحادثات ، فقرنها بحُججها ، وعرضها فى نور براهينها ، فلم يرسل القول دعاوَى يُعْوِزها البرهان ، ويُلْتَمس لها الدليل ، بل جاء بالدعوى فى شهود عدل ، من الواقعات البينة ، والروايات الصادقة .

(٣)

تكلم المؤلف عن بحثه صلى الله عليه وسلم عن الحق ، وثباته عليه ، وعن شجاعته ، ووفائه ، وزهده ، وقناعته ، وتواضعه ، وتعبده ، وعفوه ، وصفحه ، وبره ، ورحمته ، وفصاحته ، وبلاغته ، وحسن سياسته ، وحكمته فى تصريف الأمور ،

وعن أثر الدعوة المحمدية فى الفرد والجماعة ، فأبان للناس أروع ماعرف البشر من سيرة ، وأجمل ماوعى التاريخ من خُلُق ، وأعلى ماروت الأيام من عظمة : عظمة النفس ، المستمدة من صميم القلب ، ومكنون السرائر ، العظمة التى لا يكسبها الإنسان بماله أو سلطانه ، أو منصبه أو جاهه ، ولـكنها مشتقة من نفسه ، مفطورة فى خَلقه ، لايزيدها الرخاء وتنقصها الشدة ، ولا يظهرها الغنى ويخفيها الفقر ، ولا يكبرها سلطان ويصغرها زواله ، ولا يقويها نصر وتضعفها هزيمة ؛ العظمة الثابتة فى نفس العظيم ثبات قوانين الله فى أرضه وسمائه ، والسارية فى أعماله سَرَيان إرادة الله فى سننه « فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا » .

هذه هى السيرة الرائعة ، التى تناول بعض نواحيها الأستاذ عبد الرحمن بك عزام ، فعرضها فى جلالها وجمالها ، تحدوها البراهين ، وتحف بها الأدلة ، وتتجلى فيها النفس الإنسانية فى أكمل صورها ، فى سيرة محمد صلى الله عليه وسلم .

(٤)

قد أحسن المؤلف ، وإنا لنرجو أن يكون لـكتابه من الفائدة والنفع ما يلائم هذا الإحسان ، ويكافىء المشقة التى تحملها ، والمقصد العظيم الذى قصده ، والإخلاص الذى يملأ نفسه ، ويتجلى فى كل سطر مما كتب ، والله يُحسن جزاءه ، وهو لايضيع أجر المحسنين ؟



مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

أردت أن أذيع أحاديث فى سِيَر أبطال العرب ، وكَمْ نَشَّأت هذه الأمة الكريمة من أبطال ! فلما تَتَبَّعت سِيَرَهم ورَقيت فى درجات البطولة درجة بعد أخرى ، انتهيت إلى الذِّروة العُليا ، التى طَمَح إليها أولئك الأبطال فسمت بنفوسهم ، والمثل الأعلى الذى نظروا إليه فأُشْرِبَتْ قلوبُهُمْ العظمةَ والبطولة .

وبحثت فيما وراء بُطولتهم من أسباب ، وما قادهم إليها من هَدْى وتعليم ، فانتهيت إلى المورِد الذى صَدَرُوا عنه والمنزل الذى رَحَلُوا منه ؟ فإذا محمد صلى الله عليه وسلم هو الذِّروة العُليا التى طمَحوا إليها ، والمثل الأعلى الذى سَموْا إليه ، وإذا هَدْيُه مصدر بطولتهم ، ومبدأ سِيَرِهم .

فحدثت نفسى أن أبدأ بسيرة معلِّم الأبطال وإمامهم ، فأجللت الرسول الأعظم أن أسميه بَطَلاً ، وأتناول سيرته فى حديث الأبطال .

ثم قلت : إنها أحاديث ، تخاطب المصدِّق والمُنكِر ، والمسلم وغير المسلم ، فلابدَّ أن أتحدث عن سيد البَشَر ، كما أتحدث عن البشر ، ليُصْغِى إلى الحديث ضروب الناس ، على اختلاف أديانهم ، وتفرُّق مذاهبهم . وسترتقى هذه السِّيرة ، لا مَحالة ، بمستمعها إلى الغاية التى ينقطع دونها كل بطل — إلى الرسالة التى تسمو بصاحبها عن البطولة وحديث الأبطال .

فأجملت الكلام فى السيرة الخالدة ، على قدر ماسع علمى ووقتى ، وأردت أن تكون فاتحة لأحاديث طويلة فى بطولة العرب ، وَبَسْمَلَةً للسير الرائعة فى تاريخ البشر ، فحالتْ حوائل دون المُضِىِّ فى الأحاديث إلى غايتها ، فوقفت راجياً أن تتاح الفرصة لى أو لغيرى ليُتِمَّ الحديث .

وأشهد أنى لم أبلغ من تجلية السيرة مايكافىء عظمتها ، ولا ماقصدت إليه ، ولكنها فاتحة أرجو أن يكون وراءها أحاديث مستوعبة فى السيرة الكريمة ، على هذا النمَط .

والله يُهيىءُ لنا من كل أمر رَشَداً ، ويَهدينا للتى هى أقْوم ، بالاقتداء بسيرة سيد البشر ، محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ؟

٢٢ من رمضان سنة ١٣٥٧ هـ
١٥ من نوفمبر سنة ١٩٣٨ م

عبد الرحمن عزام

مقدمة الطبعة الثانية

منذ عشرين سنة كنت أتحدث فى الإذاعة المصرية عن أبطال العرب ، فلما ابتدأت بسيد العرب ، بل سيد البشر محمد صلى الله عليه وسلم ، تضاءل فى نظرى كل حديث عن الأبطال . وخرج من تلك الأحاديث هذا الكتاب ونشر ، وتحدث الناس عنه حديثاً حسناً ، وأمل كثيرون أن يعاد طبعه وأن يعم نفعه ؛ إذ رأوا فيه خلاصة مركزة لسيرة الرسول مستمدة من جميع المصادر الصادقة .

وقد كنت حين كتابته أحاديث عن أبرز صفات الرسول صلى الله عليه وسلم أقرأ كل ما وصل إلىّ من كتب المسلمين والأجانب فى لغات شتى . ولكنى كنت أتحرى الاختصار والحقيقة ما استطعت إلى ذلك سبيلا .

وأظن أن هذا الكتاب على صغر حجمه يتناول الوقائع ويشير إليها بحيث أشعر حين أقرؤه بعد عشرين سنة من كتابته أنه يثير فى نفسى مشاعر وحوادث من السيرة لا يجمع شتاتها إلا كتاب كبير .

ولعل يُسْرَه وسهولته يعينان ناشئتنا من العرب والمسلمين على إدراك ما فى دينهم من سمو على المذاهب كلها قديمها وحديثها ، وعلى أن رسول هذا الدين ورمزه هو القدوة التى يقتدى بها من يريد أن يحيا حياة طيبة فى هذا العصر ، بل وفى كل العصور . فالذين ينشأون من أبناء المسلمين فيتطلعون إلى قادة الأمم وأبطالها ويتخذون منهم مثلا سيجدون أن أعلى من يؤتم به ويعلو على الأبطال جميعاً هو إمام هذه الأمة وسيدها محمد صلى الله عليه وسلم ، إذا ما يسر لهم أن يطلعوا على مثل هذا الكتاب فى سيرته الشريفة .

القاهرة فى { جمادى الأولى ١٣٧٣ هـ
يناير ١٩٥٤ م }

عبد الرحمن عزام

بحث عن الحق وثباته عليه

إن ذكرى الأبطال ، والتحدُّثَ عنهم ، لمن أحَبِّ الذكريات ، وأطيب الأحاديث ؛ ذلك لأنهم أعلام الهدى فى تاريخ البشرية ، وأنهم المنارات فى آفاق الظلمات .

ومن هؤلاء الأبطال من امتازوا باتساع دائرة تأثيرهم وسلطانهم ، فلم تقم فى وجوههم عقبات العصبية ، ولا عقبات الزمن .

أولئك هم المبرِّزون فى تاريخ الإنسانية ، وأولئك هم الذين كان لإصلاحهم الخلودُ والأثر الباقى . وأعظم هؤلاء هو محمد صلى الله عليه وسلم ، بإجماع المفكِّرين .

يقول فيه — كرلايل — كان مولده مبعثاً للنور من الظلمات . ويقول السير مُوير : لم يكن الإصلاح أعسر ، ولا أبعد منالا منه وقت ظهور محمد ، ولا نعلم نجاحاً وإصلاحا تمّ ، كالذى تركه عند وفاته . ويقول ليونارد : إن كان رجل على هذه الأرض قد عرف الله ، وإن كان رجل على هذه الأرض قد أخلص له ، وفنى فى خدمته بقصد شريف ، ودافع عظيم ، فإن هذا الرجل بلا ريب هو محمد نبىّ العرب . وفى دائرة المعارف البريطانية : لقد صادف محمد النجاح ، الذى لم ينل مثله نبىّ ولا مصلح دينىّ فى زمن من الأزمنة . ويقول بوزورث اسمث : إن محمداً بلا نزاع أعظم المصلحين على الإطلاق .

فمحمد الذى هو فى نظر المسلمين خاتم الأنبياء والرسل ومعلم الأبطال ، هو فى نظر المفكرين من أهل الملل الأخرى ، أكبر المصلحين على الإطلاق ، فلا يحقّ لنا أن نتحدَّث عن البطولة دون أن نشرّف حديثنا به أوَّلاً .

فى سنة ١٩٢٨ ميلادية وقفت لأول مرة على قبر محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم مأخوذاً مأسوراً لهذه البطولة ، فكنت أجد أمام الضريح طيبَ المقام ، كما أجد فى تلك الحضرة التى توحى أعظم ذكرى ، ريح الخلود .

هنا روح لا يزال يشرق من غَيابة الماضى ! هنا الرجل ! هنا بطل الأبطال ! وأىّ الناس لا يجد فى أحد الأبطال مثله الأعلى ؟ كنت إذا هممت بالانصراف خلفت ورائى كل الرجاء ، وكلّ المقصود ، وإذا أقبلت صاحبنى إلى القبر خشوع من الحبّ والإكبار . فأىّ النواحى لمحمد هى التى ملكتنى أكثر من غيرها ؟ ذلك ما سأحاول الكشف عنه فى أحاديثى .

كانت ناحية الرجولة تهزّ مشاعرى ، وستهزّ مشاعر الناس مدى الدهر ، سواء آمنوا أم كفروا . فلولم يكن محمد هذا الرسول الكريم معدًّا بالفطرة للرسالة العظيمة التى قام بها ، لما كان رسولاً . ولو لم يكن ذلك الروح المشرق أهلاً للاتصال بالقوَى الإلهية ، اتصالاً فوق العادة ، لما أمكن أن تلقى إليه كلمة الله . وإلى ذلك يشير القرآن الكريم بقوله : « اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ[1] » .

فمحمد خُلق عظيماً قبل أن يوحَى إليه ، وقبل أن يكون رسولاً .

نفر منذ صباه من عبادة الأوثان ، وهى آلهة آبائه ، ومصدر عزّتهم فى جزيرة العرب كلها . وكان منذ صباه الصادق الوفىّ ، المحبوب المبجَّل فى قومه ، فسمّاه قومه الأمين .

وكان فضله ظاهراً منذ شبابه ، فدعته امرأة من صواحب الثروة الواسعة فى قريش ومن أعلاها نسباً ، إلى التزوّج بها مع علمها بفقره .

ولمَّا وقف لأوّل مرّة على الصفا يدعو عشيرته إلى دينه قال : أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدِّقِىّ ؟ قالوا ما جرّبنا عليك كذباً . قال فإنى نذير لكم بين يدىّ عذاب شديد .

كان قبل الرسالة أشدّ الناس نفوراً من الظلم ، وهضم حقوق الضعفاء ؛ فما تحمّس لعمل فى الجاهلية تحمّسه لحلف الفُضُول ، وهو أشرف حِلْف فى العرب . وسببه أن رجلا من زَبيد ، من أهل اليمن ، باع سلعة من العاص بن وائل السَّهمى ، فظلمه بالثمن ، فذكر ظُلامته فى قصيدة مطلعها :

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٢٤ .

يا آل فِهْرٍ لمظلوم بِضَاعتُه ببطْنِ مَكَّةَ نائى الدار والنفَر

فلما سمع بنو هاشم ذلك دعوا إلى تعاقد وتعاهد سمى حِلْف الفُضُول ، فلا يجدون بمكة مظلوما من أهلها أو غيرهم ، ممن دخلها من سائر الناس ، إلا قاموا معــه ، وكانوا على من ظلمه ، حتى تردّ عليه مَظْلِمَتُه .

وفى هذا الحلف يقول محمد صلى الله عليه وسلم بعد الرسالة : « لقد شهدت فى دار عبد الله بن جُدعانَ حِلفا ما أُحِبُّ أن لى به حُمْرَ النَّعَم ، ولو أُدعى به فى الإسلام لأجبت » . فنُصرة الفقير والضعيف ، هى أحب الأمور إلى نفسه .

ولد محمد صلى الله عليه وسلم كامل الخلق والمروءة ، وعاش ولم يكن للبيئة سلطان على نفسه ، بل كان طلب الحق والثبات عليه ، أبين صفاته الحميدة .

وسنضرب بعض الأمثال على تلك الصفة البارزة فى حياة بطل الإسلام الأعظم ، صلى الله عليه وسلم .

انظروا إليه وقد وُلِد فى بيت رياسة مُتَوارَثَة ، عن هاشم عن عبد مناف عن قُصَىّ ؛ قُصَىٍّ الذى دانت له الرقاب ، واستأثر فى مكة بالسلطان ، وانفرد قومه قريش بالقيام على دين العرب ، ورعاية أصنامها ، وسدانة كعبتها ، والسِّقاية والرِّفادة ، وما إلى ذلك من المناصب ، التى ترفع الذكر فى طول البلاد وعرضها .

فهل منع هذا الميراثُ محمداً من طلب الحق والثَّبات عليه ؟ كَلَّا ! لقد سفَّه أحلام آبائه ، ودعا إلى هدْم النظام الدينى ، الذى كان به فخر عشيرته وسلطانها .

وانظروا كذلك إليه فى بنى عبد مَناف ، وبين بنى هاشم والمطّلِب ، يلقى رعاية لم ينلها أحد من صِبية هــذا البيت . فهو الوحيد من البنين والحَفَدة ، الذى كان يجلس على فراش جده سيّد القوم .

كان يوضع لعبد المطلب فراش فى ظل الكعبة ، فكان بنوه يجلسون حول فراشه هذا ، حتى يخرج إليه ، ولايجلس عليه أحد من بنيه ، إجلالا له ، فكان رسول الله يأتى وهو غلام ، فيجلس عليه ، فيأخذه أعمامه ، ليؤخروه عنه ، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم : دعوا ابنى ، فوالله إن له لشأنا ، ثم يجلسه معه عليه ، ويمسح ظهره ، ويُسَرُّ بما يراه يصنع .

وتهيأ عمه أبو طالب للرحيل إلى الشام فى تجارة ، فلما أجمع المسير ضَبَّ[١] به محمد صلى الله عليه وسلم فرقَّ له ، وقال : والله لأخرجن به معى ، ولا يفارقنى أبدا . فخرج به معه ، يحمله فى ذلك السفر الشاق الطويل .

هذا التدليل والبرّ الذى حباه إياه جده وعمه ، كان جديراً أن يصرفه إلى دين آبائه ، ولكن نفس محمد صلى الله عليه وسلم لم تسكن إلى غير الحق ، فلما وجده ثبت عليه فى وجه قومه المدللين له ، والبررة به .

فأىّ مَثَل فى طلب الحقّ أعظم من ذلك الذى ضربه محمد صلى الله عليه وسلم ؟ ولما أوفدت قريش زعماءها إلى أبى طالب تُنذره ، وتطلب إليه أن يكف ابن أخيه عنها ، أو تُنازله حتى يهلك أحد الفريقين ، عظم الأمر على أبى طالب ، وخشِىَ دَهْماء العرب أن يركبوه مع قومه ، فبعث إلى محمد : إن قومك قد أنذرونى ، فأبق علىّ وعلى نفسك ولا تحَمّلنى من الأمر ما لا أطيق .

فأجاب محمد : ياعمى ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله ، أو أهلك فيه ، ماتركته ! وبكى وقام ، فلما ولّى ناداه أبو طالب : أقبلْ يابن أخى ، فأقبل ، فقال : اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشىء أبدا .

فبكاء محمد فى طفولته ألزم أبا طالب أن يحمله إلى الشام ، وبكاؤه فى كهولته جعله يُعرّض نفسه وأهله للهلاك . فلو لم يكن الحق الذى دان به محمد قد ملك قلبه ، فلا يَرى سواه ، لكان وفاء عمه له هذا الوفاء ، كافياً لصدّه عما هو فيه ، أو كان كافياً على الأقل لقبوله هُدْنة يُفرج بها عن عمه وأهله كَربهم . فأىُّ ثبات على العقيدة أعظم من هذا الثبات ، وأى امتحان للإيمان أكثر من هذا الامتحان ؟ .

هذا المقام وأبو طالب مهدَّد بالهلاك ، منذَر من قريش ، ومن ورائها دَهْماء العرب ، يستعطف رسول الله لينزل عن رأيه ، فلا يجد إلا الإباء والبكاء . هذا المقام ، والأعاصير تعصف بالرجلين ، وأضعفهما يريد هدم دين الآخر . . هذا المقام

(١) أى تعلق به

صـورة من أبدع الصور ، تبقى أبد الدهر مثلاً لسعة الصدر ، وحرية الرأى ، والتكافل ، والوفاء ، والصبر ، يقوم فيه رسـول الله صورة صادقة لحب الحقّ ، والثبات على العقيدة .

ثم انظروا صورة أخرى ، هى مثل فى الكرامة والوفاء ، وحرّية الرأى . انظروا إلى رجل من آل عبد المطلب كان مُولعاً بالصيد ، يخرج كلّ يوم للقنص ، فإذا مارجع طاف بالكعبة ، ثم مرّ بأندية قريش يسلم على أهلها ، ويتحدَّث ، وكان أعزّ فتى فيهم ، وأبعدهم عن دين محمد ، هو حمزة بن عبد المطلب . رجع يوماً من قنْصه ، وطاف بالأوثان كعادته ، فقالت له جارية : إن أبا الحكَم بن هشام (أبا جهل) ، وجد محمداً هاهنا جالساً ، فسبّه ونال منه ما يكره ، وانصرف عنه ، ولم يكلمه محمد ، فغضب حمزة وثار ، وقصد إلى أبى جهل فى مجمع قريش ، وضربه بالقوس ، فشجّه شجَّة مُنْكرَة ، ثم قال : أتشتمه ؟ فأنا على دينه أقول مايقول .!

انظروا هـذه الصورة : أعزّ فتى فى قريش يتقرّب إلى أصنامها ، ويأنس بأنديتها ، يخرج على القوم ودينهم ، غضباً لكرامة ابن أخيه ، وتحدياً للذين تعرّضوا لحريته .

هل هناك أعظم من هذا الوفاء والبر بمحمد ؟

ثم انظروا إليه صلى الله عليه وسلم يشهد هذا الوفاء ، ويرى بنى عبد المطلب فى فم الأسد ، ولا يتزحزح عن مقامه ، بل يهزأ بالدنيا ، ويقول : « لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، ماتركت هذا الأمر أو أهلك دُونَهُ » .

أرأيتم كيف يُعشَق الحق ؟ وكيف يكون الثبات عليه ؟ تلكم أظهر صفات محمد صلى الله عليه وسلم .

انظروا إليه كذلك فى صورة أخرى : يفاوضه عن قومه عُتبة بن ربيعة بجانب الكعبة ، فيقول له : يابن أخى ، إنك منا حيث قد علمت ، من البسطة فى العشيرة ، والمكان فى النسب ؛ وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرّقت به جماعتهم ،

وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت من مضى من آبائهم ؛ فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها ، لعلك تقبل بعضها .

فقال محمد : قل يا أبا الوليد . قال عُتبة : إن كنت إنما تريد بما جئت به مالا ، جمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا مالاً ؛ وإن كنت تريد به شرفاً ، سوّدناك علينا ، حتى لانقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به مُلكا ، ملّكناك علينا ؛ وإن كان هذا الذى يأتيك رَئِيّا تراه لا تستطيع ردّه عن نفسك ، طلبنا لك الطبّ ، وبذلنا فيه أموالنا ، حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يُدَاوَى منه .

فلما فرغ قال له محمد : استمع منى يا أبا الوليد :

« بسم الله الرحمن الرحيم : حم تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ » ومضى يتلو عليه ، وكان ذلك كل جوابه لما عَرَضَتْ قريش .

فلو لم يكن الحق الذى ملأ نفسه هو مطلبه الأسمى ، لوجد فى رفق قومه المخاصمين له مايطفىء من حماسته، ويسكن من ثورته على دينها وآلهتها .

ثم انظروا إلى محمد فى بيته بين خديجة وبناتها وخدمها قريراً منعماً . فهى من أغنى قريش ، وأوسطهم نسباً ، نمَا مالها بين يديه ، نخلا من هموم الدنيا ، ومطالبها الملحّة ، وها كم دليلا على طيب المعاشرة والمحبة فى بيت محمد ، قصة زيد بن حارثة .

هذا رجل من العرب اسْتُرِقّ ، فاشترته خديجة ، ووهبته لمحمد عبداً مملوكا . فأعتقه وعاش فى بيته ، فاستدلّ عليه أبوه ، وجاء ليفديه ، فقال محمد لأبيه : إنه حُرّ فليختر مايشاء . فآثر زيد محمداً على أبيه .

ومثل آخر يدلّ على حاله فى نظر أعرف الناس به ، وهى زوجه . لما جاءه الوحى لأول مرة ، ورجع إليها خائفاً وجلا ، تلقته بهذه الكلمة : كلا . والله ما يُخزِيكَ اللهُ أبداً ، إنك لتَصِلُ الرَّحم ، وتحمِلُ الكَلَّ ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ ، وتقرى الضيفَ ، وتُعين على نوائب الحق .

ففى قولها وفعلها كل الدليل على ما كان فى بيت محمد من الهناءة المنزلية .
فما الذى أخرجه إذن من دَعَةِ هذا البيت وسكونه ، إلى الثورة على دين مَكَّة ، يلقى فيها الأذى والاضطهاد ؟

لا شك أن الذى أخرجه هو شىء أعزّ عليه من زوجه وبنيه ، وعشيرته التى تُؤويه ، ذلكم هو الإيمان بالحقّ الذى دعا إليه ، والذى لا يبغى غيره ، ولا يعيش إلا له .

تلكم نفس محمد ؛ خُلُقها المتجلى فى كلّ صورة من صورها ، حبّ الحقّ والثبات عليه .

لقد سألت مرة — ونحن فى قطار فى لندرة — أحد كبار العلماء المستشرقين : هل تظن أن محمداً كان يقول قولا لا يؤمن به ؟ فقال : لا ! إن أمراً واحداً لا ريب فيه ، وهو أنه كان صادقاً مؤمناً إيماناً كاملا بما يقول ، وبما يدعو إليه .

تلك هى الصفة التى لا ينكرها على محمد عدوّ ولا صديق .

فالحق فى ذاته هو الغاية التى دأب وراءها ، وخاصم وابتُلِى وهاجر وقاتل لها . والناس جميعاً طلّاب للحق ، أو يجب أن يكونوا كذلك ، وقد ضرب لهم محمد المثل الأعلى .

ولا يزال رسول الله فى مَيدان البطولة ، تمرّ بين يديه أبطال العرب وغير العرب ، كما تمرّ مئات السنين ، وهو المثل الأعلى للثبات على الحق ، والدعوة إلى أن يكون الناس كافة لله عبيداً ، وفيما بينهم إخواناً .

شجاعة

حديثنا هنا يرمى إلى تصوير الشجاعة التى انطوت عليها نفس محمد صلى الله عليه وسلم ، تلك الشجاعة المنقطعة النظير . وقد آثرْتُ أن أصوّر حالة المجتمع العربى وقت ظهور الدعوة ، ومقدار نفور القوم منها ، ليدرك الناس مدى الكفاح الذى كافحه محمد ، ومقدار ما يلزم لمثل هذا الكفاح من الشجاعة . كما آثرْتُ سَوْق أمثلة من مواقفه صلى الله عليه وسلم ، تبيّن بسالته محاربًا ، وشجاعته النفسيّة مصلحاً دينيًّا ، وسياسيًّا ، واجتماعيًّا .

جاء محمد لقومه بدعوة ، فى قبولها قلب حياتهم رأساً على عَقِب . لم تكن تلك الدعوة تتناول دينهم وحده ، بل شملت حياتهم فى جميع مظاهرها : فى السياسة ، وفى الاجتماع ، وفى المال ، وفى البيت . ولم يكن طبَعيا ولا مألوفا أن ينكروا ما وجدوا عليه آباءهم وبلادهم طواعية ؛ فكان إذن لا بدّ لهم من ردّ هذه الدعوة ، وقهر صاحبها ؛ ليرجع إلى الصف الذى خرج عنه ، فيعظِّم حُرُماتهم التى يعظّمون .

كانت مكة للعرب مَحَطّ الرحال ، ومصدر الهدى ، إليها يحُجّ الناس خاشعين ، وفيها قريش سَدَنَة الكعبة ، وحُماة البيت ، أتاحت لها تلك المكانة الممتازة أن ترحل فى الصيف إلى الشام والعراق ، وفى الشتاء إلى اليمن ، آمنة على نفسها وأموالها وتجارتها ، فأثْرت واعتزّت ، وامتنّ الله عليها بقوله : « لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ . رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ . الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ ، وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ » .

فقريش الآمنة ، العزيزة الجانب المثرية ، لا شكّ تعادى من يريد لدينها تبديلا ، ولنظامها تغييراً ؛ ومحمد يدعو أوّلاً إلى توحيد ، وينذر ثانياً بالبعث ؛ فلاهى راضية بإله غير آلهتها ، ولا هى واجدة فى البعث والحساب الذى ينذرها به ما تعقله أو ترضاه .

وعبادة الأوثان ، وإن بانت لنا الآن بعد مئات السنين من قبول التوحيد

غريبة مُنكرة ، لم تكن كذلك فى عهد محمد ، بل كانت اليهودية والنصرانية محل سُخْرية العرب ومقتهم ، وكانت الوثنية مستقرّة فى نفوس القوم .

والعجيب من شأن هذه الوثنية التى يأباها العقل ، أنها قريبة لغرائز البشر ، فقد ارتدّ إليها بنو إسرائيل سراعاً فى غيبة موسى ، وقالوا : « اُجْعلْ لَنَا إِلٰهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ » .

وعَبَدَ المصريون القدماء آلاف السنين أنواعاً من الأوثان والكواكب والحيوان ؛ فليس بعجيب أن نرى قريشاً يعزّ عليها فراق ما عبده آباؤها جيلاً بعد جيل .

ولو أن محمداً قصر دعوته على التوحيد ، وتسفيه أحلام القوم ، لكفى بذلك إعناتاً ، ولكنه دعا كما قلت إلى الإيمان بالبعث ، فاستغربوا ذلك ، واستبعدوه كل الاستبعاد ، وقالوا : « أئذا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ » .

سخِروا من هذه الفكرة ، واستدلّوا بها على ضعف رأى صاحب الدعوة . مشى إليه يوماً أُبىّ بن خلف بعظْم بالٍ ، فقال : يا محمد ، أنت تزعم أن الله يبعث هذا ! ثم فتّه بيده ، ثم نفخه فى الريح نحو رسول الله . فردّ القرآن على ذلك بقوله : « وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ ، قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » .

صدمت الدعوة إلى التوحيد والبعث دين قريش وعقلَها فسخِرت من الداعى ، ثم هبت إلى الإيذاء والعُدوان .

لم يكتف محمد بدعواه هذه الغريبة فى رأى القوم ، بل زاد عليها أن دعا إلى تحريم الخمر ، والزنا ، والميسر ، والربا . وقريش لا تستغنى عن هذه الأربعة ؛ ففيها مُتَعُهُمْ ، وفيها تفاخرهم ، وفيها غِناهم وثروتهم .

فربا قريش كان فى القبائل كلها ، ومحمد يريد أن يحرم عليها ما تعدّه من طيبات الحياة ، ومصادر الثروة ، فأنَّى لها أن تستطيع على ذلك صبراً ؟ .

ولكى نتصوّر تمكن الخمر والزنا والميسر والربا من نفوس القوم ، أسوق لكم مثلاً ، تعلمون منه كيف كانت الرذيلة سلاحاً فى يد قريش، تُنفِّر به العرب من دعوة محمد :

جاء أعشى قيس إلى مكة يريد الإسلام ، ويمدح الرسول بقصيدة يقول فيها :

وآليتُ لا أرثي لهـا[1] من كَلَالَةٍ ولا من حفًى حتَّى تُلَاقِي مُحَمَّدَا

نَبيٌّ يَرَى مالاَ تَرَوْنَ وذِكْرُهُ أغارَ لَعمرِي في البلادِ وأنْجَدَا

فلما كان بمكة ، أو قريباً منها ، اعترضه بعض المشركين من قريش ، فقال له : يا أبا بصير[2] ، إنه يحرّم الزنا ، فقال الأعشى : والله إن ذلك لأمر مالي فيه من أرَب فقال له : يا أبا بصير ، فإنه يحرّم الخمر ، فقال الأعشى : أما هذه فوالله إن في النفس منها لُعلالات ، ولكني منصرف ، فأتَرَوَّى منها عامي هذا ، ثم آتيه فأُسْلِم ، فانصرف ، فمات في عامه ذاك .

لم يكتف محمد بالتوحيد ، والبعث ، وتحريم بعض ما طاب لنفوس القوم ، بل دعا كذلك إلى أمر غريب مستنكر لديهم ، ذلك هو حق المساواة ، وهم الذين قضوا أعمارهم في التفاخر بالأحساب والأنساب . فما بال محمد يخرج عليهم بالمساواة بين السادة والعبيد ، ويجعل الناس سَوَاسِيةً كأسنان المشط ؟ إنها للكبيرةُ التي لن ترضى قريش أن تقرّه عليها ، قريش التي أنفت أن تُسَوَّى بالناس ، فحرّفت لذلك دينها ، وأنفت أن تقف على عرَفة ، وأن تُفيض منه كما يقف الناسُ ويُفيضون ، وهي تعلم أن ذلك من مشاعر إبراهيم وفرائض الحج . . قريش التي ألزمت العرب ألا يطوفوا بالبيت في أثواب جاءوا بها من البدو ، فطافوا عُراة . . قريش التي كانت تختص بأنواع الامتياز التي جعلتها لنفسها كما تشاء ، كيف ترضى لمحمد أن يدعو للمساواة المطلقة ، وأن يقول لعشيرته : يا بني هاشم لاَ يجئني الناس بأعمالهم وتجيئوني بأنسابكم ...

بل من الغريب أن محمداً ، وهو في بيت الرياسة من قريش ، وفي طليعة المتازين ، رفض في الجاهلية ضروب هذا الامتياز ، وسوّى نفسه ببقية الأمة قبل أن يكون رسولاً يوحى إليه .

لم تستطع قريش صبراً على الدعوة إلى المساواة ، فبطشت بالعبيد ، وقست على المستضعفين الذين وجدوا في قول محمد إنصافاً .

(١) ناقته .

(٢) كنية الأعشى .

ولم يكتف بأن عاب أوثانها ، وأنذرها ببعث وحساب شديد ، وقوّض جاهها وسلطانها ، وحرمها شهواتها والاتجار بالربا ، وسوّى بينها وبين العبيد والمستضعفين بل قام يطلب لهؤلاء العبيد والفقراء وأبناء السبيل حقًّا فى أموال الأغنياء : « والذينَ فِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ » يؤخذ منهم قسْراً ، ويُضْرَب عليهم ضريبة ، وما كان أبغض إلى نفوس القوم من ضريبة يؤدونها مفروضة ! فلما مات الرسول كانت تلك الضريبة أول ما عَصَوْا عليه ، وارتدوا من أجله .

ذلك مجمل من القول يصوّر لكم حالة المجتمع الذى قام فيه محمد داعياً إلى الله ، وإلى نظام سياسى واجتماعى بَغيض إلى القوم . وقد صوّر ذلك القرآن فى أبدع إيجاز بهذه الآية : « وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا » .

إذا تصورتم ذلك كله ، أدركتم ما ينبغى لمثل هذا الكفاح من الشجاعة والصبر ، والشجاعة والصبر هما عماد البشرية ، يمسكانها على الأرض كما تمسكها الجبال أن تميد بمن عليها . وقد ضرب الأبطال والشهداء للناس أمثلة فى الشجاعة هى النور فى تاريخ الحياة ، يهدى إلى الحق وإلى صراط مستقيم . وقد امتحنت شجاعة معلّم الأبطال صلى الله عليه وسلم طول حياته ، فما تطرّق إليها وَهْن . هذه الشجاعة لازمته منذ الصِّبا ، فهو فيها المجلّى فى الجاهلية والإسلام .

استُحلف مرّة وهو صبيّ باللاتِ والعزّى ، فقال : لا تسألنى بهما شيئاً ، فوالله ما بَغضْت شيئاً بُغْضى لهما .

هذا الصبيّ يتحدّث بهذه الجرأة عن آلهة القوم ، لايخشى بطشاً ، وهو المشهور بالحياء ، حتى قيل فيه : إنه كان أشدَّ حياء مِنَ الْعَذْرَاء فى خِدرها .

خرج إلى اليمن فى قافلة مع عميه ، وكان فى السابعةَ عشْرَةَ من عمره ، فرأوا فى وادٍ فحلاً من الإبل ، قد توحش وجمح ؛ فتعرض له محمد وكبح جِمَاحه .

وفى حرب الفِجَار وهو دون العشرين كان يَنْبِل على أعمامه .

واعترض القافلة وادٍ ملىءُ ماء ، فهابته الجماعة ، فتقدم وقال : اتبعونى ، اتبعونى .

هذه أمثلة من جُرْأة الصبا ، ولكن الأمثلة التى نريدها ، والتى ينحنى لها أبطال العالم إكباراً وإجلالاً ، هى تلك التى ضربها بعد الرسالة ، وبعد أن جَهَر

بالدعوة وقال الله له : « فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ » . قال علىّ : كنا إذا حمى البأس ، واحمرّت الحدَق ؛ اتّقينا برسول الله ؛ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه .

وهَاكُمْ حادثتين ، هما عندى المثل الأعلى فى شجاعة المحارب :

فزع أهل المدينة ليلة ، فانطلق ناس قِبَل صوت ، فتلقاهم رسول الله راجعاً ، وقد سبقهم إلى ذلك الصوت ، واستبرأ الخبر على فرس عُرى ، والسيف فى عنقه ، وهو يقول : لن تراعُوا .

ويومَ حُنَين وقف على بغلته ، والناس يفرّون عنه ، وهو يقول :

أنا النبىّ لا كذِبْ أنا ابن عبد المطلبْ

فما رُئى أحد يومئذ كان أثبت منه ، ولا أقرب للعدوّ .

ولقد اخترت هاتين الحادثتين من تاريخ طويل ؛ لأن الأولى منهما هبّ فيها رسول الله إلى مكان الخطر ، قبل أن يتحرك الناس ، وفى الثانية ثبت فى مكان الخطر وقد فرّ الناس . والذين لهم علم بالحرب يعرفون أنه بهذين الموقفين تمتحن الشجاعة ، فليس أصعب على النفس من السبق إلى الخطر ، ولا من الصبر عليه وقد استولى الخوف ، وغلب الرعب .

هذه الشجاعة التى امتاز بها أبطال الأمم ، والتى كان لمحمد فيها النصيب الأوفر ، ليست عندى الشجاعة التى اختصّ بها رسول الله ، والتى هى أعلى صفات البطولة . ولكن شجاعته حين خرج على قومه مفاجئاً بالدعوة التى كرهوها ، وشجاعته وهو يصابر على الأذى والسخرية ؛ وشجاعته وقد تعاهدت قريش فى صحيفة عُلِّقت بالكعبة على مقاطعة عمه أبى طالب ، ومن تبعه من بيت هاشم والمطلب ، لحمايتهم له ، فبقُوا فى الشدة ثلاث سنين ، وهو على هذا ، دائب على أن يصلى فى البيت ويجهر بالقرآن ؛ وشجاعته وقد بعث أنصاره إلى الحبشة فراراً من الأذى والموت ، وصبره هو بعدهم وحيداً يتعرض للأذى والموت ؛ وشجاعته وقد مات عمه أبو طالب وزوجه خديجة فى أيام متتابعات ، وكان فى عمه وزوجه النصير والوزير ، ثم يبقى بعد ذلك قائماً بمكة ، تمرّ الحادثات عليه كأنها الأعاصير تعصف فى ذروة الطود الراسخ ؛

وثباته فى الموقف وحيداً إذ يعرض نفسه على القبائل ، ويلقى السخرية وأشنع الردّ بالقول والفعل حتى إذا ما انصرف كلّ أنصاره مهاجرين ليثرب ، جاء البيت يوماً بعد يوم يقيم صلاته ونُسُكهُ جهراً ، ويتلو القرآن جهراً .

تلك صور لو رسمت وعرضت ، لكانت أبهج ما تنشرح له صدور الأبطال فى كل جيل وأمة ، ولجعلت إمامته فى الشجاعة النفسيّة مرضية للأجناس والأديان : سوداً وبيضاً ، موحدين ومشركين .

تلك الشجاعة النفسية أو الأدبية التى لا تهن للسخرية ، ولا تذلّ للوعيد ، ولا تطيش للوعد ، والتى أمسكت الخلق المحمدى ، فكانت سنده الذى لا يتزلزل ، هى شجاعة مقطوعة النظير فى تاريخ البشر .

انظروا إليه وقد سلطوا عليه سلاح السخرية ، وهى أفتك ما يكون بالعزيمة ، وأقتل ما يكون لحماس الرجال ، هى أفتك من الأذى والاضطهاد .

وقف مرة على الصفا ينادى قريشاً ، فلما جاءوا يستمعون أنذرهم حساب الله فتركوه وانصرفوا ، ولم يزد أبو لهب على أن قال : تبًّا لك ! ألهذا دعوتنا . . . ؟

كانوا يتواصون فيما بينهم : « لاَ تَسْمَعُوا لِهذَا القُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُون » .

فهمْ كانوا يعلمون أن سلاح الهزء والسخرية أنكى على الدعوة من الاضطهاد والأذى ؛ فلم يغفلوا عن هذه السخرية ، فلما أشار القرآن إلى شجرة الزقّوم تخويفاً لهم ، ازدادوا بها طغياناً ، وقال بعضهم مستهزئاً : يا معشر قريش ، أتدرون ما شجرة الزقوم التى يخوفكم بها محمد ؟ إنها عجوة يثرب بالزبد ، والله لئن استمسكنا بها لنتزقمّنها تزقّماً ..

ولما أشار القرآن إلى جهنم ، وأن عليها تسعة عشر من الزّبانية . قال أبو جهل وهو يهزأ برسول الله : يا معشر قريش ، يزعم محمد أن جنود الله الذين يعذبونكم فى النار ، ويحبسونكم فيها تسعةَ عشَر ، وأنتم أكثر عدداً ، أفيعجز كل مائة رجل منكم عن رجل منهم ؟

فنزل القرآن : « وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إلاَّ مَلاَئِكَةً ، وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إلاَّ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا » .

كان الرسول إذا جلس مجلساً يعظ الناس خَلَفه فى مجلسه « النضر بن الحارث » وكان قَدِم الحِيرة ، وتعلم بها أحاديث الفُرْس ، وأحاديث رُسْتَم وإسْفِنديار ، فيقول : يامعشر قريش . أنا والله أحسن من محمد حديثاً ، فهلموا إلىّ ، فأنا أحدثكم ، وأنزل مثل ما أنزل الله ، ثم يحدثهم عن رستم وإسفندنار وملوك الفرس .

انظروا أيضاً إلى هذه السخرية بمحمد وأتباعه :

ذهب خَبَّاب بن الأرَتّ أحد المستضعفين من أصحاب رسول الله ، وكان صانعاً للسيوف ، ذهب يتقاضى من العاص بن وائل ، أحد عظماء مكة ، أجر ماصنع ، فقال له : يا خَبَّاب أليس يزعم محمد صاحبكم أن فى الجنة ما ابتغى أهلها ؟ قال خباب : بلى ، قال : فأنظرنى إلى يوم القيامة ياخباب ، حتى أرجع إلى تلك الدار فأقضيك هنالك حقك ، فوالله لاتكونن أنت وأصحابك ياخَبَّابُ آثر عند الله منى ولاأعظم حظاً .

وكان الوليد بن المغيرة قد انفرد بالرياسة فى مكة ، وَأَبُو عُروة بن مسعود الثَّقَفِىّ قد انفرد بالرياسة فى الطائف ، فكانوا يقولون تهكما : « لَوْلَا أُنْزِلَ هٰذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ » تصغيراً من شأن محمد ، وزِراية به .

لم تزدهم هذه السخرية على إضرارها بالدعوة إلا غفلة ، ولا زادته إلا صبراً واستبسالاً ، فمرت السنون على هذا التهكم والأذى ، والشجاعة النفسية تسنده ، وتعلو به ، وتقر هيبته ، وتلقى الرعب فى نفوس أعدائه .

فلما تحطمت أسلحة السخرية والأذى على جَنَبات النفس الأبيّة ، وتآمر المشركون على قتله ، خرج مُسْتَخفياً مهاجراً ، فكان وهو فى الغار يقول لصاحبه : « لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا » .

وابتدأ بذلك دور الصِّراع ، الذى لمع فيه السلاح ، كما لمعت النفس التى صقلتها الشجاعة ، فعرف رسول الله كيف يصبر ويرضى ، وكيف يثور ويغضب ، وبقى خالداً تنطوى صفحات الأبطال ؛ وصفحته منشورة تُقرَأُ فيها آيات الشجاعة والصبر ، ويظل بها رسول الله المثل الأعلى .

وفـــاؤه

نتحدث هنا فى وفاء بطل الأبطال محمد صلى الله عليه وسلم ، وفائه لأعدائه ، ووفائه لأصدقائه .

والوفاء هو القِوام لمكارم الأخلاق ، به تستقيم الحياة ، وهو ميزان المروءة ، ومقياس الفضل فى الأفراد والأمم ، ولو دان به الناس لوجدوا السعادة كاملة .

يُحدِث الوفاء فى نفس الوفى من الغِبطة مالاحدّ له ، وفى نفس الموفَّى له الرغبة فى البرّ والمروءة ، واصطناع المعروف عند الناس . والأمم الوفيّة تُبْتَغَى صداقتها ، ويُرْغب فى معاهدتها ، ويُوفَّى لها بذمتها .

انظروا إلى العالم المضطرب الذى نعيش فيه ، أليس عدم الوفاء قِوام هـذا الاضطراب ؟ إذا كان الحليف لايأمن عهد حليفه ، فأنّى لأحدهما أن يستقرّ إلى ضمان من هذا العهد ، يقيه مظنة السوء ، ويكفيه شرّ الخوف ، ويوفِّر عليه نفقات الاستعداد ليوم الغدر .

لو أن العهود والمواثيق كان لها من الحُرمة ما أراد بطل الأبطال صلى الله عليه وسلم ، لما هبط العالم إلى حياة الدسّ والكيد ، والذمم المخفورة ، والجوار المنتَهك . ولو سار المسلمون على النهج الذى نهجه ، واقتدى بهم غيرهم ، لوضعت العلاقات الدولية على أثبت القواعد التى تكفل السِّلم ، وتضمن الإنصاف ، وتستبقى الكرامة للناس جميعاً . انظروا إلى هذه الأمثال نسوقها ، لتروا صوراً من الوفاء ، هى أروع ما ينظر إليه الناس .

قبل سنة من هدنة الحديبية ، كانت قريش تحاصر المدينة ، وقد جمعت لذلك الأحزاب من أهل القُرى والأعراب ، فنقض بنو قُرَيظة عهدهم مع رسول الله ، واشتدّ بذلك الكرب ، وزلزل المؤمنون زلزالا شديداً ، ولكن الله نصر عبده ، وأعزّ جنده ، وألقى الرعب فى قلوب المشركين ، ولم تمض إلا فترة وجيزة حتى كان

جيش الإسلام بقيادة رسول الله يزحف إلى مكة ، فنزل الحديبية ، وبعثت قريش رسلها إلى محمد صلى الله عليه وسلم .

وها هو ذا عروة بن مسعود الثقفي رسولها يعود إليها ، يصف حال محمد وجنده بهذه العبارة : إني قد جئت كسرى في ملكه ، وقيصر في ملكه ، والنجاشي في ملكه ، وإني والله مارأيت مَلِكا في قومه قطُّ مثل محمد في أصحابه .!

كان محمد في مَنَعة وقوّة ، ولكنه كان يعلن أنه لايريد الحرب ، ويقول : لا تدعوني قريش اليوم إلى خُطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها . فلما جاءه سُهيل بن عمرو مفوّضاً من قريش لعقد هدنة ، يرجع بها محمد وجيشه عن دخول مكة ، كان من شروط هذه الهدنة شرط ظاهر الغبن ، وهو أن محمداً يسلم إلى قريش من لجأ إليه من المسلمين بغير إذن وليّه ، ولايطلب تسليم من لجأ إلى قريش من أتباعه .

ذلك الشرط هاج أصحابَ محمد صلى الله عليه وسلم ، حتى إن عمر رضى الله عنه كان يذهب تارة إلى أبي بكر ، وأخرى إلى الرسول ، ويقول : ألسنا المسلمين ! أليسوا المشركين ! ألست رسول الله ! فعلام نُعْطِي الدَّنِيَّةَ في ديننا ؟ فيقول محمد : أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يُضيِّعني ؛ ويقول أبو بكر : أشهد أنه رسول الله . فقبول المسلمين هذا الشرط هو استسلام منهم لأمر لم يدركوا سرّه ، وكان ذلك أعظم بلاء وامتحان لصبرهم . وبينما هم على هذه المضاضة ، وقد فرغ الرسول من الجدل مع مفوّض قريش « سهيل بن عمرو » ، ولم يكتب العقد ، ولم يمض ، جاءهم أبو جندل مستصرخاً يرسُف في قيوده .

وأبو جندل هذا هو ابن سهيل بن عمرو نفسه ، وقد انفلت إلى المسلمين من أيدي المشركين ، فلما رأى سهيل ابنه قام إليه ، وأخذ بتلابيبه ، وقال : يامحمد ، قد لَجَّت القضية بيني وبينك (أي فرغنا من المناقشة) قبل أن يأتيك هذا . قال محمد : صدقت . وأبو جندل ينادي : يامعشر المسلمين ، أأُردّ إلى المشركين يفتنونني في ديني ؟

تصوّروا ذلكم المقام ، مقام محمد صلى الله عليه وسلم ، وهوالشجاع الذى حدثتكم عن شجاعته المقطوعة النظير ، وهو القوىّ الذى خرج من المدينة زاحفاً بجيش سمعتم الآن وصف عروة بن مسعود له ، تصوّروه وهو يرى أقرب أصحابه يكاد يجنح إلى العصيان ، ثم تصوّروا لاجئاً يرسُف فى القيود ، وهو من أبناء الأعزة فى قريش ، يرسف فيها لمحمد ودين محمد ، ثم انظروا إليه صلى الله عليه وسلم لايحتال ولايتردّد ، ولما يكتب ، ولما يمض ، يقول لسهيل : صدقت ، لقد لجت القضية ، ويردّ صاحبه باكياً إلى أعدائه ! .

تصوّروا كلّ ذلك ، ثم ليكتب إلىّ من شاء بمثل واحد فى تاريخ البشر كله كهذا المثل ، يضرب به محمد في رعاية الكلمة التى قالها ، ولمّا تُكتب ، ولمّا تُمض . ذلك هو أعلى الأمثال فى الوفاء بعهد العدو .

بل أرسل الله محمداً بشريعة فى الوفاء ، تجعل حق الميثاق فوق حق الدين نفسه ، فقد جعل الدية للمشرك من قوم بينهم وبين المسلمين عهد ، ولم يجعل دية للمسلم من قوم ليس بينهم وبين المسلمين عهد .

وكذلك حرم نصرة المسلم للمسلم على من بيدهم ميثاق المسلمين من أهل الملل الأخرى ، فقد جاء فى القرآن : « وَإِنْ اُسْتَنْصَرُوكُمْ فى اُلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إلا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ » . ذلك هو التقديس للعقود والمواثيق ، الذى يبقى أبد الدهر فيه الهدى للناس جميعاً .

هذا وفاؤه لأعدائه إذا عاهدهم . والآن انظروا معى إلى وفائه لعدوّ قد قتل فى حربه :

كان مُطعِم بن عَدِىّ من أشراف قريش ، وكان رسول الله حين رجع من الطائف ، ولقى من ثقيف منكر القول والفعل ، طلب جِوار بعض رؤساء مكة ، ليدخلها آمناً على حياته ، فأبوا ، وقبِل مُطعِم أن يدخلها فى حمايته ، فلما كانت وقعة « بدر » بعد ذلك ، ودارت الدائرة على قريش ، وقتل نفر من صناديدها ، كان بين القتلى مطعِم بن عدى ، فقال فيه حسان بن ثابت ، شاعر رسول الله :

أيا عينُ فابكى سيِّدَ القومِ واسفَحِى   بدَمعٍ ، وإنْ أنزَفتِه فاسكُبِى الدمَا
وبَكِّ عَظِيمَ الْمَشْعَرَيْنِ كليهِمَا   عَلَى النَّاسِ مَعرُوفٌ لَهُ ما تَكَلَّما
فَلَوْ كان مَجْدٌ يُخلِدُ الدَّهرَ وَاحِدًا   مِنَ النَّاسِ أَبْقَى مَجدُهُ اليَوْمَ مُطْعِما
أَجرتَ رسولَ اللهِ مِنْهُمْ فَأَصبَحوا   عَبِيدَكَ ما لَبّى مُهِلٌّ وأَحْرَما
فَلَوْ سُئِلَتْ عَنْهُ مَعَدٌّ بِأَسْرِها   وقَحْطانُ أَوْ بَاقِى بَقِيَّةِ جُرْهُمَا
لَقالُوا هُوَ الْمُوفِى بِخِيرَةِ جَارِهِ   وذِمَّتِه يَوْمًا إِذَا مَا تَذَمَّما
فَمَا تَطْلُعِ الشَّمْسُ المنِيرةُ فَوقَهُمْ   على مِثْلِهِ فيهِمْ أَعزَّ وَأَعْظَمَا

ذلكم رثاء حسان لرجل من المشركين ، مات يحارب محمداً وصحبه ، يستمع إليه صاحب الدعوة ، ويَسُرُّه أن يرى المسلمين يردّدونه .

أرأيتم وفاء كهذا وسعة صدر ؟ أرأيتم بطل الأبطال يسمو إلى أعلى ما تصل إليه الرجولة والإنسانية الكاملة ، فيبكى المروءة فى عدو هو أحد صرعاه فى القتال ؟ ذلكم هو الوفاء الذى علا فوق كل شىء .

ثم انظروا إلى وفائه للمشركين أيضاً : كان بين شروط هدنة الحديبية أن من شاء دخل فى عقد محمد وعهده ، ومن شاء دخل فى عقد قريش وعهدها ، فدخلت خُزاعة على شِرْكها فى عهد محمد . فلما نقضت قريش عهدها معه ، ونصرت حليفتها بكراً عليها ؛ ذهب عمرو بن سالم الخزاعى يطالب بالعهد ، ويطلب نصر حلفائه ، فوقف على رسول الله ، وهو فى المسجد ينشده ويقول :

يا ربِّ إنى ناشِدٌ محمَّدا   حِلْفَ أبينا وأبيه الأَتلَدَا
فانْصُرْ هَداكَ اللهُ نصراً أَعتَدا   وادْعُ عِبادَ اللهِ يأتُوا مَدَدَا
فى فَيْلَقٍ كالبَحْرِ يجرى مُزْبِدَا   إنَّ قُرَيْشاً أَخْلَفُوكَ الْمَوْعِدَا
* وَنَقَضُوا ميثَاقَكَ الْمُؤَكَّدَا *

فكان ذلك الاعتداء على المشركين من حلفاء المسلمين ، سبباً فى الاتجاه إلى فتح مكة ، فأسرع رسول الله بالتجهز والزحف عليها .

هذه أمثلة سقناها من وفاء بطل الإسلام صلى الله عليه وسلم لأعداء الملة ، وقد عاهدهم ، أو ذكر لهم صنيعاً ، أو قبل محالفتهم على غيرهم .

ووفاؤه لأصدقائه هو الذى نستنفد فيه القراطيس ولا ننتهى ، فحياته منذ الصبا هى البر والوفاء .

يقول عبد الله بن أبى الحمّاء : بايعت[1] محمداً ، ووعدته أن آتيه فى مكانه ، فنسيت ، فذكرته بعد ثلاثة أيام ، فإذا هو فى مكانه ، فلما رآنى لم يزد على أن قال : لقد شَقَقْتَ علىّ ، أنا هنا منذ ثلاثة أيام أنتظرك ، وكان ذلك فى الجاهلية قبل أن يُبعث محمد .

وروت عائشة : أن عجوزاً جاءت إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال لها : من أنتِ ؟ فقالت : جُثامَةُ المُزَنيَّة ، فقال : أنت حسّانة ؟ كيف أنتم ؟ كيفَ حالكم ؟ كيف كنتم بَعْدَنَا ؟ قالت : بخير ، بأبى أنت وأمى . فلما خرجت قلت : يا رسول الله تُقْبِل على هذه العجوز هذا الإقبال ! قال : إنَّها كانَتْ تأْتينا زمنَ خَديجةَ ، وإن حسن العهد من الإيمان .

وبعد وقعة حُنين ، وفيها كادت هوازن تقضى على الإسلام لولا ثباته صلى الله عليه وسلم ، جاءه وفد منها ، وهى الباغية المستكبرة ، تطلب العفو عن أسراها ، فماذا وجدت لتحرك به رحمته ، وتستثير شفقته ؟ لا شىء ، فليس أشدّ سواداً من ماضيها معه ، ولكنها وجدت فى وفائه ملجأها ومنتهاها ، فقال رجل منهم : يا محمد ، إن فى الحظائر مرضعاتك وحواضنك ، ولو أنا ملحنا[2] للنعمان بن المنذر ، أو الحارث ابن أبى شِمْر الغسانى ، ثم نزل منا مثل الذى نزلت ، رجونا عطفه وعائدته علينا . فقال عليه السلام : أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم . فقال المهاجرون والأنصار : ما كان لنا فهو لرسول الله . وبذلك ردّ على هوازن آلاف الأسرى . تلك هى النفس الوفيّة ، التى تكرم أمة ظالمة مغلوبة وفاء للبن الذى رضعته فيها ، فهل للناس وقد عفا فيهم أثر المعروف أن يتذكروا ؟

ثم إليكم هذه الحادثة ، فقلبوا تاريخ القادة فى العالم أحياء وأمواتاً ، ثم اذكروا محمداً وصلُّوا عليه :

---

(١) بايعت : أى بعت له شيئاً .

(٢) أى أرضعنا .

كان يتجهز فى المدينة لفتح مكة ، وكان يخفى أمره ، حتى على أبى بكر وعائشة ، فلما أعلن العزم ، سارع حاطب بن أبى بَلْتَعة إلى امرأة استأجرها ، وكتب لها كتاباً إلى قريش ، وضعته فى شعرها ، وفتلت عليه قرونها ، فعلم رسول الله ، وأُخِذَتِ المرأة فى الطريق ، فلما سأل حاطباً ما حمله على فعله ؟ قال : يا رسول الله ، أما والله إنى لمؤمن ، ما غيرت ولا بدَّلت ، ولكنى كنت امرأ ليس لى فى القوم من أصل ولا عشيرة ، وكان لى بين أظهرهم ولد وأهل ، فصانعتهم عليهم . فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ، دعنى فلأضرب عنقه ، فإن الرجل قد نافق ! فقال رسول الله : وما يدريك يا عمر ؟ لعل الله قد اطلع على أصحاب بدر يوم بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ! فأنزل الله فى حاطب : « يٰـأَيُّها الّذينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ » .

تأملوا فى هذا ، إن وفاء محمد لأصحابه الذين نصره الله بهم فى بدر ، جعله يرجو أن يكون الله قد غفر لحاطب حتى هذه الفعلة .

ثم كان رسول الله فى مرض الموت ، فلما اشتدّ به خرج إلى أصحابه ، فصعد المنبر ، وقال : يا معشر المهاجرين ، استوصوا بالأنصار خيراً ، فإن الناس يزيدون ، وإن الأنصار على هيئتها لا تزيد ، وإنهم كانوا عَيبتى التى أويت إليها ، فأحسنوا إلى محسنهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم .

ثم انظروا أخيراً إلى مقام الوفاء من نفسه ، وهو يقول يوم أحد حين أمر بدفن القَتلى : انظروا إلى عمرو بن الجموح ، وعبد الله بن عمرو بن حرام ، فإنهما كانا متصافيين فى الدنيا ، فاجعلوهما فى قبر واحد .

ذلكم هو الوفاء الذى نحن فى أشدّ الحاجة إليه ، ولن يستقيم أمر العالم حتى يتذوّقه الناس ، وحتى يؤمنوا به إيمان محمد وأصحابه .

زهده وقناعته

زهده وقناعته صلى الله عليه وسلم ، قد ضرب فيهما المثل الأعلى للناس جميعاً ، للراعى والرعية ، والأفراد والجماعات . انظروا إلى العالم الذى نعيش فيه ، فإنه يشكو الجشع الذى أصاب أهله ، فلا الغنىّ قانع بآلافه وملايينه ، ولا الفقير راض بالكفاف من العيش ؛ فالمالكون لأعنّة المال يصرفونه فى شئون الهوى ، والأُجَراء كذلك يتطلعون إلى المال من أجل الهوى . ليس المسيطرون أقلّ رغبة فى اللهو ممن هم دونهم ، فقد تساوى الأمير والحقير ، وجعلوا هدف الحياة وغايتها شهوات النفس ، ومتاع العيش .

انظروا يميناً ويساراً فى كلّ البيئات ، بل فى العالم أجمع ، هل ترون إلا خَلْقاً قد انطلقوا للدرهم والدينار ، لا يلوون على شىء ، وانصرفوا لعبادة المال ، فملك قلوبهم ومشاعرهم ، وأصبح رفيقهم فى حركتهم وسكونهم ؟

وهل ترون إلا صِراعاً بين أمم اتخذت حبّ المال والغَلَب عليه غايتها ، فهو لها الأوّل والآخر ، والظاهر والباطن ؟ وهل ترون إلا طبقات من الأمم تتطاحن ، ليس لها مطلب إلا السبق إلى المتاع ، واختطاف بعضها ما فى أيدى البعض ؟ وهل ترون إلا أفراداً من فاز منهم بالغنيمة تنحى بها جانباً ، وأرخى لهواه العِنان ، فى قصور مشيدة ، وجنان ، ومراكب ، ومواكب ، ومتاع ، وغرور ، والناس ينظرون إليهم مع الحسد والإعجاب ، لا يسألون أنفسهم شيئاً عن أصل هذا أو مصيره ؟

تلك الأمم والطبقات والأفراد فى صراعها على مواد الحياة قد هوت إلى الحيوانية ، ليسوا فيها لا كالقطيع يتزاحم ويتطارد ، ليحظى بالعُشْب ، أو الكلاب تتهارش وتتخاطف العظام .

هوى الإنسان فى سبيل المال والهوى إلى الدَّرْك الذى جاء الأنبياء والرسل جميعاً ليرفعوه عنه ، ويوجهوه وجهة أسمى من المُحَسّات ، وجهة معنوية مقتصدة فى رغبات البدن الزائل ، متطلعة إلى مطالب الروح الخالدة .

جاء بطل الأبطال صلى الله عليه وسلم ؛ والناس على مثل هذه الحال لا يعرفون فضلا إلا للأموال والأحساب ، ولا يدركون من لذّة التقوى ومتاع الروح شيئاً ، فضرب مثلاً من نفسه فى القناعة والزهد واحتقار الدنيا ، صرف الناس عما هم فيه ، وأخرج الصحابة الزهّاد الذين جعلوا للحياة الروحية المقام الأول ، فاتخذوا الدنيا مطية إلى ما هو أسمى منها .

ضرب محمد عليه السلام المثل من نفسه ، فى فقره وغناه ، وضعفه وقوته ، ضربه وهو محاصر مع أهله فى الشِّعب ، وضربه وهو ملتجىء إلى المدينة ، وهو يقيم دولة الإسلام فيها ، وبعد أن أقامها ، وبعد أن ملك الأموال والرقاب فى جزيرة العرب كلها ، فكان يهب هبات الملوك فيعطى الغِنَى ، ويرجع إلى داره وفراشه فيها الحصير وطعامه خبز الشعير .

قال ابن مسعود : دخلتُ على رسول الله وقد قام على حصير ، وقد أثّر فى جَنْبه ، فقلتُ : يارسول الله ، لو اتَّخذْنا لكَ وِطَاءً تجعله بينك وبين الحصير ، يَقيكَ منهُ ؟ فقال : مَالى وللدنيا ! ما أنا والدُّنيا إلا كَرَاكِبٍ استظلّ تحت شجرةٍ ثم راح وتركها .

وعن قتادة بن النعمان قال : قال رسول الله : إذا أحبَّ اللهُ عبداً حَمَاهُ مِنَ الدُّنيا كما يَظلُّ أحَدُكُمْ يحمى سَقيمَه الماء .

تلك نظرة بطل الأبطال صلى الله عليه وسلم إلى الحياة الحسية ، تلك النظرة السامية التى اخترقت حُجُب هذه الدنيا ، فلما كثر أتباعه ، وانتشر دينه ؛ فتحت القلوب إلى ما هو أوسع من البطن والفم والأنف ، وسمت النفس الإنسانية فوق تلك الحجب ، فتجلى لها النور الإلهى ، واتسع الأفق ؛ وأضاءت الأرواح العلية هذا الوجود ، فشهد العالم دولة الصدر الأول للإسلام ، فيها المثل الكامل للزهد والقناعة والعدل والمساواة والمعروف وطيب العيش ، فيها مثل أبى بكر وعمر وهما فى أثواب مرقعة ، يحسدهما كسرى وقيصر .

وهل كان عمر فى الثوب المرقع على الأرض أقل متاعاً بالحياة من المترفين الجبابرة ؟

كلا ، إنما هو نوع آخر من اللذات ، أبعد من الحيوانية ، وأدنى إلى الإنسانية ، ذلك هو متاع الروح التى فرّت إلى الله ، وإلى أسمى الحياة الوجدانية ، وذلك أبعد أثراً فى النفس ، وأحسن عاقبة للأبدان ، وأحبّ إلى وجودنا البشرى .

تلك المدرسة المحمدية مدرسة القناعة والزهد ، أخرجت ولاة وحكاماً للشعوب ، يقنعون بدرهم فى اليوم أجراً ، ويقيمون الولاية والملك على أحسن مايرضى الله والناس .

يروى ابن هشام عن زيد بن أسلم : لما استعمل رسولُ الله عَتّاب بن أُسَيد على مكة رَزَقَهُ كلَّ يومٍ درهما ، فقام وخطب الناس ، فقال أيها الناس أجَاع الله كَبِدَ من جاعَ على درهمٍ ، فقد رزقنى رسول الله درهماً كل يوم ، فليست لى حاجة إلى أحد .

هل ترون خلال هذه الخطبة إلا رجلا فرحا برزقه ، قد ضمن العيش بدرهم ويريد أن يفرغ إلى ما هو فوق العيش ! هذه هى القناعة ، التى تلقاها الصحابة من المعلم الأكبر .

انظروا إلى محمد نفسه ، خرج مرة من المسجد ، فوجد أبا بكر وعمر ، فسألهما عن خروجهما ، فقالا : أخرجنا الجوع ، قال : وما أخرجنى إلا الجوع ، فذهبوا إلى أبى الهيثم ، فأمر لهم بشعير ، وقام إلى شاة فذبحها ، واستعذب لهم ماء معلّقا عنده فى نخلة ، ثم أُتُوا بالطعام ، فأكلوا وشربوا من ذلك الماء ، فقال عليه الصلاة والسلام : لَتُسْأَلُنَّ عن نَعيم هٰذا اليوم !

كان النبى معروفاً بفرْط الحب لأولاده ، حتى إن فاطمة بنته كانت إذا دخلت عليه قام إليها وقبّلها ، وأجلسها مكانه ، ومع ذلك كانت تعيش عيشة الفقراء ، وتشكو من آلام الرحى ، وتجرح يدها أحياناً من حمل الماء ، فطلبت إليه يوما خادما من الأسرى فأبى .

وروى أنه قال لعلىّ : كيف تطمَعُون فى شىء من هذا ؟ وأهل الصُّفة على ماهم عليه منَ الفقر ! ودخَلَ على فاطمة وفى يدها سِلْسِلَةٌ من ذَهبٍ ، وهى تقول لامرأة عندها : هذه أهداها أبو الحسن ، فقال صلى الله عليه وسلم : يا فاطمة ، أيَسُرُّكِ أن يقول الناس ابنةُ رسولِ الله فى يَدِها سِلْسِلَةٌ من نار ؟ ثم خرج ولم يقعُد فأرسلت فاطمة بالسلسلةِ فباعتها ، واشترتْ بثمنها عبداً ، فأعتقته ، فحُدِّث رسول الله بذلك فقال : الحمدُ لله الذى نَجَّى فَاطِمةَ مِنَ النارِ .

ذلكم هو الزهد الذى علمه بطل الأبطال أهل بيته وصحبه والناس جميعاً . وإن فاطمة ، وقد باعت السلسلة ، وأعتقت العبد ، قد تمتعت ولا ريب بلذة وجدانية ، وطمأنينة نفسية ، أبعد أثرا فى تشييد بيت السعادة ، من تلك السلسة من الذهب فى عنقها ، تفخر بها على صاحباتها .

روى البخارى عن عائشة أنها قالت لعروة : يابنَ أختى ، إنْ كُنَّا لننظرُ إلى الهلالِ ثمّ الهلال ، ثلاثة أهِلّة فى شهرين وما أوقدت فى أبيات رسول الله صلى الله عليه وسلم نارٌ .. فقلت : يا خالةُ ، ما كان عيشكم ؟ قالت : الأسْودَان : التمرُ والماء ، إلا أنه قد كان لرسول الله جيرانٌ من الأنصار كانت لهم منائح[1]، وكانوا يَمْنَحُون رسولَ الله من ألبانها فيَسْقِينا .

وقد ذكر مرة وهو فى الصلاة : أن فى بيته تِبْراً ، فخفف الصلاة ، وسارع إلى التبر ، ففرّقه على الفقراء ، كراهة أن يبيت الذهب فى بيته .

قال عقبة بن الحارث : صلّى بنا رسول الله العصر فأسرع وأقبل يَشُقُّ الناسَ من سُرْعته ، ودخل إلى بيته ، ثم لم يكن بأوشكَ مِنْ أن خَرَجَ ، فقال : ذكرت شيئا من تِبرٍ كان عندى ، فخشيت أن يحبسَنى فقَسَّمْتُه . هذا الذى يقسم التبر بين الناس هو الذى تقول عائشة أيضاً عن حال أهله : ما شَبِعَ آلُ مُحَمَّدٍ من خبز البُرّ ثلاثاً ، حتى قضى لسبيله ، وما أكل آلُ محمد أكلتين فى يوم واحد إلا إحداهما تمر . ويقول أنس : قال رسول الله : لقد خِفْتُ فى اللهِ ما لم يخفْ أحد ، وأُوذِيتُ فى اللهِ ما لم يُؤْذَ أحد ، ولقد أتى علىّ ثلاثون ما بين يوم وليلة ، ومالى ولبلالٍ من الطعامِ إلا شىء يواريه إبط بلال[2] » .

وهاكم أمثلة من مأثور قوله فى القناعة والزهد ، وما كان قوله إلا مطابقاً لعمله ، فما عرف عن بطل الأبطال حديث إلا كان صورة لنفسه الكريمة ، معبراً عما رضى لها من خلق وما هو عليه من فطرة .

---

(١) المنائح جمع منيحة ، وهى الشاة تعار لينتفع بها .

(٢) يريد شيئاً يسيرا يضمه حامله تحت جناحه فلا يظهر .

والذين يقرءون بإمعان سيرته الكريمة ، يرون مطابقة أقواله أفعاله فى كل أطوار الحياة مطابقة تامة ، فلم يكن يخشى الفقر أكثر مما يخشى الثروة والغنى ، وكان يكره الكنز ، ويقول : إنه لم يترك فى بيته ثلاثة دنانير يضم إليها ديناراً آخر ، إلا لقضاء دين ، وكان يقول : اللهمّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ محمدٍ كَفافاً وقيل قوتاً (أى لا يزيد على الحاجة) .

وعن أبى أمامة الأنصارى قال : ذكروا عند النبىّ الدُّنيا ، فقال : ألا تَسْمعونَ ، ألا تَسْمعون ؟ إن البَذَاذَة من الإيمان ، إن البَذَاذَة من الإيمان (أى التواضع فى اللباس ، وترك الزينة) .

وقال علىّ : بينما نحن جلوس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذْ طلع علينا مُصعَبُ بن عُميرٍ ، ما عليه إلا بُردة مرقعة بفروٍ ، فلما رآه صلى الله عليه وسلم بكى للذى كان فيه مصعب من النعمةِ ، ثم قال : كيفَ بكم إذا غدا أحدُكم فى حُلَّة ، وراح فى أخرى ، ووضعت بين يديه صحفة ، ورفعت أخرى ، وسترتم بيوتكم كما تُستر الكعبة ؟ قالوا : يا رسول الله نحن يومئذ خير منا اليوم ، نُكْفَى المؤنة ، ونتفرغ للعبادة ، فقال : بل أنتم خير منكم يومئذ .

وكان صلى الله عليه وسلم يحبب إلى الناس صحبة الفقراء ، حتى تنصرف آمالهم عن التطلع إلى الترف والزينة . يقول عون بن عبد الله بن عتبة : كنتُ أصحبُ الأغنياء ، فما كان أحد أكثرهمّا منى ؛ كنت أرى دابةً خيراً من دابتى ، وثوباً خيراً من ثوبى ، فلما سمعتُ قولَ رسول الله : إذا نظر أحدكم إلى من فضَل عليه فى المال والخَلق ؛ فلينظر إلى من هو أسفل منه ، فذلك أجدرُ ألا تَزْدَرُوا نعمةَ الله عليكم . قال ، لما سمعت ذلك صحبت الفقراء فاسترحت .

لابد أن يخطر لكم هنا هذا السؤال : ما الحدّ بين الغنى والفقر فى نظر رسوا الله صلى الله عليه وسلم ونظر أصحابه ؟ وإنا محاولون أن نصوره لكم كما صورته كتب الحديث .

قال صلى الله عليه وسلم : من أصبح آمناً فى سِرْبه ، معافًى فى بدنه ، عنده قوتُ يومه ، فكأنما حِيزت له الدنيا بحذافيرها . وروى عثمان عنه أنه قال : ليس لابن آدم

حقّ فى سوى هذه الخصال : بيت يسكنه ، وثوب يوارى عورته ، وجِلف[1] الخبز والماء . وسأل رجل عبد الله بن عمرو بن العاص ، فقال ألسنا من فقراء المهاجرين ؟ فقال له : ألك زوجة تأوى إليها ؟ قال نعم ، قال : ألك مسكن تسكنه ؟ قال : نعم ، قال : فأنت من الأغنياء ، قال : فإن لى خادماً ، قال : فأنت من الملوك .

ولقد سأله أصحابه : ماالغنى الذى لا ينبغى معه المسألة ؟ قال : قدر مايغدّيه ، أو يعشيه.

لذلك كان رسول الله يكره من الناس السؤال ، ويقول : لو تعلمون ما فى المسألة ما مشى أحد إلى أحد يسأله شيئاً ؛ وكان يترفع بأنصاره عن ذل السؤال .

أتى إليه رجل من الأنصار يسأله ، فقال : أما فى بيتك شىء ؟ قال : بلى ، حِلْس نلبس بعضه ، ونبسط بعضه ، وقَعْب نشرب فيه الماء . فقال : ائتنى بهما ، فأتاه بهما ، فأخذهما صلى الله عليه وسلم بيده ، وقال : من يشترى هــذين ؟ قال رجل : أنا آخذهما بدرهم . قال رسول الله : من يزيد على درهم ؟ مرتين أو ثلاثاً ، قال رجل : أنا آخذهما بدرهمين ، فأعطاهما إياه ، وأخذ الدرهمين ، فأعطاهما الرجل ، وقال : اشتر بأحدهما طعاماً فانبذه إلى أهلك ، واشتر بالآخر قَدوماً فأتنى به ، فأتاه به ، فشد فيه رسول الله عوداً بيده ، وقال : اذهب فاحتطب وبع ، ولا أرَيَنَّكَ خمسة عشر يوماً ، ففعل ، ثم جاء وقد أصاب عشرة دراهم ، فاشترى ببعضها ثوباً ، وببعضها طعاماً ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا خير لك من أن تجىء المسألة نـكتة فى وجهك يوم القيامة .

كان بطل الأبطال صلى الله عليه وسلم مثال الرجولة ، يحب النظافة والطِّيب ، ويبغض الخُيَلاء والتظاهر ، وما يقصد به إلى الترف . قال علىّ : أخذ رسول الله حريراً فجعله فى يمينه ، وذهباً فجعله فى شماله ، فقال إن هذين حرام على ذكور أمتى .

ورأى عمر مرة حُلة من إستبرق تُباع ، فأتى بها النبى ، فقال : يا رسول الله ابتع هذه ، فتجمل بها للعيد والوفود ، فقال رسول الله : إنما هذه لباس من لاخَلاق له .

كان سيد العرب ، ومالك الجزيرة يملأ بالأموال صحن المسجد ، فيقسمها على الناس

---

(١) جلف الخبز : الغليظ اليابس ، يؤكل بغير إدام .

إلى آخر درهم ، فإذا دخل إلى بيته نام على جلد محشو بليف ، قالت عائشة : كان فراشه من أَدَم حَشْوُه ليف .

وتقول عائشة : إنه كان لرسول الله حصير يحتجزه فى الليل ، فيصلى فيه ، ويبسطه فى النهار ، فيجلس عليه وكان فى طعامه قانعاً زاهداً يقول : « حَسْبُ ابن آدم لُقَيْمَاتٌ يُقِمْنَ أَوَدَه[1] » .

يقول أنس خادمه : ما علمتُ النبى خبزله مرقّق قط ، ولا أكل على خِوَانٍ قطّ .

وسئل سهيل بن سعد : هل أكل النبى النقىّ[2] ؟ فقال ما رأى النبىّ النقىّ منذ ابتعثه الله حتى قبضه .

ولم يقصد رسول الله بهذا الزهد إضاعة المال ، ولا تحريم ما أحلّ الله لعباده من الزينة والمتاع ، فقد عرف الزهد بهذا المعنى السامى فى قوله : ليست الزهادةُ فى الدنيا بتحريم الحلال ، ولا إضاعة المال ، ولكن الزّهادةُ أن تكون بما فى يد الله تعالى أوْثقَ منكَ بما فى يدك ، وأن تكون فى ثواب المصيبة إذا أُصبْت بها ، أرغب منك فيها ، لو أنها بقيت لك ، لأن الله تعالى يقول : « لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ » .

وكان يحب النظافة والطيب والهيئة الحسنة ، ويحرص عليها . قال عطاء بن يسار : أتى رجل النبى ثائر الرأس واللحية ، فأشار إليه كأنه يأمره بإصلاح شعره ففعل ، ثم رجع فقال النبى : « أليس هذا خيراً من أن يأتى أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان » ! ورأى رجلا عليه ثياب وَسِخة ، فقال : « أما كان هذا يجد مايغسل ثوبه ؟ » وجاءته هند بنت عتبة تريد أن تبايعه ، فقال : « لاأبايعك حتى تغيرى كفيك . . كأنهما كفا سبُع » . يريد أن تصلح أظفارها ، وتغير كفها بالحناء .

وكان صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله طيب يحب الطيّب ، نظيف يحب النظافة ، كريم يحب الكريم ، جَوَاد يحب الجواد ، فنظفوا أفنيتكم ، ولا تَشَبَّهوا باليهود » .

---

(١) الأود : الاعوجاج .
(٢) خبز الدقيق الخالص .

فرسول الله فى زهده وقناعته إنما كان يكره الخيلاء والإسراف والترف ، ويحب للمسلم أن يرضى بالكفاف ، وأن يكون جواداً نظيفاً .

كان بطل الأبطال فى زهده وقناعته مثلاً كاملا ، صوّر لنا كيف يتأتى للرجل أن يعيش كريماً ، يضع تسعين ألف درهم على حصير أمامه ، فينفقها جميعاً ، وينام بعد ذلك على حصير يؤثر فى جنبيه ، فإذا أرادوا أن يتخذوا له وطاء قال : « ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ، ثم راح وتركها » .

ذكر وهو فى مرض موته أن فى بيته سبعة دنانير ، فأمر أهله أن يتصدقوا بها ، فنَسُوا لاشتغالهم بمرضه ، وأفاق يوم الأحد الذى سبق وفاته ، فسأل عائشة مافعلت بالسبعة الدنانير ؟ فأجابت إنها لاتزال عندها ، فطلبها ووضعها فى كفه ، ثم قال : « ماظنُّ محمد بربه لو لقى الله وعنده هذه ! » ثم تصدق بها على الفقراء ، وقد لقى الله فى كساء ملبد ، وإزار غليظ ، هو لباسه الذى قضى فيه ، ولكنه ترك وراءه نوراً يشع من جبين القناعة والزهد ، يهدى البشر إلى الحياة الطيبة ، ويوجههم إلى ماهو أسمى من متاع الأبدان الزائلة ، إلى متاع الأرواح الخالدة ، ولا يزال رسول الله فى قناعته وزهده قدوة الأبطال والناس جميعاً ، يتطلعون إلى منتهى قصده ، فلا يدركون منه إلا قليلا .

تواضعه وتياسره

صفة بيّنة لبطل الأبطال صلى الله عليه وسلم ، كانت ولا تزال على مرّ الأجيال بادية واضحة فى طبعه الكريم ، تلك هى : التياسر والتواضع ، فبهما كان محمد صورة صادقة لكرامة الإنسان ، يؤتاها من صميم نفسه ، ولا يصطنعها مما يحيط به من مظاهر خادعة متكلفة .

كان محمد التياسرَ نفسه يتمثل فى الرجل الكامل ، وينبعث من أعماق قلبه ، فيبدد ما يتجمع حوله من زخرف السيادة والملك ، وما يتبعهما من الرياء والزينة ، وما يُخدع به الناس من قول أو فعل كان محمد قريباً هيناً سهلاً ، يلقى أبعد الناس وأقربهم ، وأصحابه وأعداءه ، وأهل بيته ووفود الملوك بلا تصنع ولا تكلف ، بل بالحق سافراً .

فكانت أعماله تصدر طبيعية ، كلّ منها يدل على خُلقه ، كما تدلّ الصورة على صاحبها .

واسمعوا إلى عدىّ بن حاتم الطائى يروى قصته ، وقد قدم إليه من الشام ، بعد أن فتحت جيوش المسلمين بلاده ، وبعد أن فرّ إلى الروم هارباً .

يقول ، وقد كان يظن أنه سيلقى مَلِكاً فى المدينة : دخلتُ على محمد وهو فى المسجد فسلمتُ عليه ، فقال : مَن الرجل ؟ فقلت : عدىّ بن حاتم . فقام وانطلق بى إلى بيته ، فوالله إنه لعامد بى إليه ، إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة ، فاستوقفته فوقف طويلا تكلمه فى حاجتها ، قال : فقلت : والله ما هذا بملك . قال : ثم مضى بى رسول الله حتى إذا دخل بى بيته ، تناول وسادة من أَدم محشوّة ليفاً ، فقذفها إلىّ ، فقال : اجلسْ على هذه ، قال : قلتُ : بل أنت فاجلس عليها ، فقال : بل أنت . فجلست عليها ، وجلس رسول الله على الأرض ، قال : قلت فى نفسى : والله ما هذا بأمرِ ملك . ثم قال : إيهِ يا عدىّ بن حاتم ، ألم تَكُ رَكُوسيّا (دين بين النصرانية والصابئية) . قال : قلت : بلى ، قال : أو لم تكن تسيرُ فى قومك بالمِرباع ؟ قال :

قلت : بلى ، قال : فإن ذلك لم يكن يحلّ لك فى دينك . قال : قلت أجل والله ، وعرفت أنه نبيّ مرسل ، يعلم ما يُجْهل . ثم قال : لعلك يا عدىّ إنما يمنعك من دخول فى هذا الدين ما ترى من حاجتهم ، فوالله لَيُوشِكَنّ المال أن يَفيض فيهم حتى لا يوجَد من يأخذه ؛ ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوّهم ، وقلة عددهم ، فوالله ليوشكنّ أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها تزور هذا البيت لا تخاف ؛ ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان فى غيرهم ، وايْمُ الله لَيُوشِكَنَّ أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم . قال : فأسلمت .

ولقد عاش عدىٌّ حتى رأى القادسيّة والقصور البابلية مفتحة للعرب .

هذه طبيعة محمد لا طلاء عليها ، يأتيه عدىّ وقد وقع بعض أهله قبل ذلك أسْرى لجيوشه ، يأتيه مغلوباً فيجلسه على وسادة ، ويجلس هو على الأرض ، ويحدثه بلا كلفة عما كان ، وما يعتقده كائناً . ثم انظروا إليه وقد مات ابنه إبراهيم ، فـكُسِفت الشمس ، فقال الناس : كُسِفَت الشمسُ لموتِ إبراهيم ، فيقوم فى المسجد يقول : « إن الشمسَ والقمرَ آيتانِ من آياتِ اللهِ لا تنكسِفانِ لموتِ أحدٍ ولا حياتهِ ، فإذا رأيتمْ ذلك فادْعوا اللهَ وصلُّوا وتصدّقوا » .

هذه هى النفس البريئة التى تعشق الحقّ للحقّ ، وتتعالى فى تواضع عن استغلال وهم من الأوهام ، أو مصادفة من المصادفات، بل تأبى السكوت على سخفٍ أو ضلال ، ولو كان من شأنه أن يبهر العامة .

وهَاكُمْ ما يَروِى جَابِرُ بنُ عَبدِ اللهِ عمَّا وقعَ له ، قالَ : كانَ بالمَدينةِ يَهودىٌّ وكانَ يُسْلِفُنِى فى تَمرِى إلَى الجذاذِ[1] فجَاستْ (أى تأخر ثمرها) عاماً ، فجَاءنى اليَهودىُّ عندَ الجذاذِ ، ولَمْ أَجد شيئاً ، فَجَعلْتُ أَسْتَنْظِرُه إلى قَابل ، فَيَأْبى ، فَأُخبرَ بِذَلكَ النّبىُّ ، فقال لأَصحَابه امْشُوا نَستَنظِرْ لجابرٍ منَ اليَهودىِّ ، فجَاءونى فى نَخْلِى ، فَجَعَل النبىُّ يُكلِّمُ اليَهودِىَّ ، فيقول : أبَا القَاسِم ، لا أُنظِرُه ، فقَامَ

(١) الجذاذ : قطع الثمر .

النبيُّ فَطافَ فى النَّخْل ، ثُمَّ جَاءَهُ فَكلَّمَهُ فَأَبى ، فقمتُ فَجِئتُ بقَليلِ رُطَبٍ ، فوضَعْتُه بَيْنَ يَدى النبيِّ ، فأكلَ ثمَّ قالَ : أَيْنَ عَرِيشُكَ يَا جَابر ؟ فَأَخبَرْتُه ، فقالَ : افرِش لِى فيهِ ، ففَرشتُه ، فَدخلَ فَرقدَ ، ثمَّ استَيْقظَ ، ثُمَّ جِئتُه بقَبْضَةٍ أُخرَى فَأَكل مِنْها ، ثمَّ قامَ فَكلَّمَ اليَهودِىَّ ، فأَبى عَلَيه فقالَ : يا جابر ، جُدَّ واقْضِ ، (أى اقطع التمر ، واقض دينك) . ويقول جَابرٌ : إنَّ اللهَ بَارَكَ فِيهِ فَقضَى الدَّيْنَ وزَادَ .

والحكاية تصوّر لنا تياسره وتواضعه فى سعيه بين اليهودى وجابر ، وأكله ونومه ، ولين جانبه ، فلم يزد بعد أن يئس من اليهودى على أن يأمر صاحبه بأداء ما عليه .

انظروا كذلك إليه كيف يستأذن على أحد أصحابه ، وكيف ينصرف ؟

يقول قيس بن سعدٍ : زارنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى منزلنا ، فقالَ : السلامُ عليكم ورحمةُ اللهِ . فردَّ أبى رَدًّا خفيًّا . فقلتُ لأبى : ألا تأْذنُ لرسول الله فقال : ذَرْهُ حتى يُكثِرَ علينا من السلام ، فقال صلى الله عليه وسلم : السلامُ عليكم ورحمةُ الله ، ثم رجعَ فأَتبعه سعدٌ ، فقال يارسولَ اللهِ : إنى كنتُ أسمعُ تسليمَكَ وأردُّ عليك ردًّا خفيًّا ، لِتكْثِرَ علينا من السلام . فانصرف معه النبىّ ، وأمر له سعدٌ بغُسْل فاغْتسَلَ ، ثم ناوله مِلْحفةً مصبوغة بزعفران ، فاشتمل بها ، ثم رفع يديه ، وهو يقول : اللهم اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد . فلما أراد الانصرافَ قرّب له سعد حماراً ، فقال سعدٌ : يا قيسُ ، اصحب رسولَ الله ، فصحبته ، فقال : ارْكَبْ معى ، فأبيت ، فقال : إما أن تركب ، وإما أن تنصرف ، فانصرفت .

هذه زيارة سيد العرب والعجم لأحد أنصاره من كبار المدينة ، تمرّ فى غير حفل ، ولا ظهور ، يذهب إليه ماشياً ، ويعود على حمار ؛ يريد أن يُرْدِف عليه رفيقه تلك السجية الطاهرة لم تحل دون أن يكون أمر محمد مطاعاً ، وطاعته قربة ، فإن يحسب الناس أن مظاهر الرياسة والسلطان لازمة لحسن الولاء ، واستدامة

الطاعة ، فلقد كان ولاء سعد والأنصار لمحمد المتواضع مضرب الأمثال فى تاريخ الدعوة الإسلامية .

ولم تكن دعوته قيساً إلى الركوب معه على الحمار أمراً غريباً ، بل كانت هذه عادته يُرْدف على حماره وبغلته وناقته ، ويُعاقب[1] مع رفاقه . قال ابن عباس : إن النبيّ لما قدم مكةَ استقبلَهُ أُغَيْلِمَةُ بنى عبد المطلب ، فحمل واحداً بين يديه ، وآخر خلفه . وقال معاذُ : كنتُ رِدْفَ رسول الله على حمارٍ يقال له عُفَيْر . وجاء إليه رجل ، وهو يمشى ، فقال : اركبْ وتأخرَ على حمارِه ، فقال محمدٌ : أنت أحقّ بصدرِ دابتك منى ، إلا أن تجعله لى ، فقال الرجل : فإنى جعلته لك . ويقول جابر : كان رسول الله يتخلف فى السير ، فيُزجى الضعيف (أى يسوقه ليلحق الرفاق) ويردف ، ويدعو لهم . ولم يكن أبغض إليه صلى الله عليه وسلم من الكبر والخُيلاء ، فقد قال : « لاَ يدخُلُ الجنَّةَ من كانَ فى قلبِهِ مثقالُ ذرَّةٍ من كِبر ، فقال رجلٌ : إن الرجلَ يحبّ أن يكون ثوبه حسناً ، فقال صلى الله عليه وسلم : إن اللهَ جميلٌ يحبّ الجمالَ : الكِبْرُ بَطَرُ الحق ، وغَمْص الناس » . وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله : « لينْتهينّ أقوامٌ يفتخرونَ بآبائهم الذين ماتوا ، إن اللهَ أذهَبَ عنكم عُبِّيَّةَ الجاهلية (أى كبرها) إنما هو مؤْمنُ تقِىٌّ ، أو فاجرٌ شقِىٌّ ، الناس كلهم بنو آدمَ ، وآدم خُلِقَ من ترابٍ » .

هذا الحديث ينم بمعناه وعبارته على مقدار غضب محمد إذا ذكر الكبر والمتكبرون ، ولو كان للناس أن يفخَروا بآبائهم لما كان فى جزيرة العرب أحق بالفخر من محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى ، ولكن محمداً لا يرى فى المجتمع الذى أقامه إلا هيئة تتساوى فيها الحرف ، والمراتب ، والأعمال والأحساب ، والأنساب ، ولا تفاضل عنده إلا بالعمل الصالح يرفع صاحبه .

كان مرة فى سفر مع صحبه ، فأرادوا أن يهيئوا لهم طعاماً ، فقسموا العمل بينهم ، فقام يجمع الحطب ، فأرادوا أن يَكفُوه ذلك فأبى ، لأن الله يبغض الرجل يتعالى على رفاقه . ولما وقف عليه أعرابى يرتجف خشية زَجَرَهُ وذكّره أنه ابن امرأة

---

(١) المعاقبة أن يركب واحد مرة ، ويركب الثانى أخرى .

من قريش كانت تأكل القديد[1] . وخرج على جماعة من أصحابه يتوكأ على عصا ، فقاموا له ، فقال : لاتقُوموا كما تقومُ الأعاجمُ يعظِّم بعضُهم بعضاً ، وكان يرى كذلك فى تقبيل اليد تشبّهاً بالأعاجم ، وينهى عنه .

وكان محمد يكره الإطراء والألقاب : انطلق إليه وفد بنى عامر ، فلما كانوا عنده ، قالوا : أنت سيدُنا ، فقال السيدُ اللهُ ، فقالوا : وأفضلنا فضلاً ، وأعظمنا طَوْلاً فقال : قولوا قولكم ، ولايستجرينّكم الشيطان . ويقول أبو بكر رضى الله عنه . أثنى رجلٌ على رجل عند النبىّ ، فقال : ويلكَ ! قطعت عُنُقَ صاحبك ، أى أهلكته بالإطراء والمدح والتعظيم ، فإنه يعجب بذلك فيهلك ، كأنه قطع عنقه . ويقول أبو هريرة أمرَنا الرّسول أن نَحْثُوَ فى أفواه المدّاحينَ التّرَابَ .

وكان محمد صلى الله عليه وسلم يكره كذلك الُخيَلاءَ والتفاصح والتأثير فى الناس بالقول المزخرف ، ويقول : إنَّ من أحبكم إلىَّ ، وأقربكم منّى مجلساً يومَ القيامة ؛ أحاسِنَكُمْ أخلاقاً ، وإنَّ أبغضَكُمْ إلىّ ، وأبعدكم منى يوم القيامة ؛ الثّرثارُون والمتشدّقون والمُتَفَيْهِقُونَ . قالوا يا رسولَ الله ، وما المُتَفَيْهِقُونَ ؟ قال :المُتَكَبِّرُونَ . والثّرثارُون هم الذين يُكثرون الكلام تكلفاً ، والمُتَشَدّقُونَ هم الذين يتكلمون بملء أفواهِهِمْ تفاصُحاً وتعاظما . وكان يكره الخطيب يسلب بفصاحته ألباب الناس ، ويملك حواسهم ، قال صلى الله عليه وسلم : من تعلّم صرفَ الكلام لِيَسْتَبِيَ به قلوبَالرجال ، لم يقبَلِ الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلا . وكان يقول : هلك المتنطعون ويكرّرها. بغضاً منه فى التعمق والتفاصح ، كان كل ذلك نفوراً بطبعه الميسر المتواضع عن التظاهر والرياء والتكلف .

كان فى تياسره جمّ التواضع ، وافر الأدب ، يبدأ الناس بالسلام ، وينصرف بكله إلى محدثه صغيراً أو كبيراً ويكون آخر من يسحب يده إذا صافح ، وإذا تصدق وضع الصدقة بيده فى يد المسكين ، وإذا أقبل جلس حيث ينتهى المجلس بأصحابه . لم يكن يأنف من عمل يعمله لقضاء حاجته أو حاجة صاحب أو جار ، فكان

(١) القديد لحم مملوح يجفف فى الشمس .

يذهب إلى السوق ، ويحمل بضاعته ، ويقول : أنا أولى بحملها ، ولم يستكبر عن عمل الأجير والفاعل سواء كان فى بناء مسجد المدينة ، أو فى الخندق وهو أمير الجيش يدفع الأحزاب .

وكان محمد كذلك متواضعاً فى ملبسه وسكنه ، يلبس كعامة من حوله ، ويسكن وقد واتته الدولة والسلطان — فى صفّ من حجرات واطئة مبنية باللبِن ، بين كل حجرة وأخرى حائط من جريد النخل ، ملبس بالطين ، ومغطى بجلد أو كساء أسود من الشعر .

وكان يجيب دعوة الحرّ والعبد والأَمَة والمسكين ، ويقبل عذر المعتذر ، وكان يرقع ثوبه ويَخْصِف نعله بيده ، ويخدم نفسه ، ويعقِل بعيره ، ويأكل مع الخادم ، ويقضى حاجة الضعيف والبائس .

كان هذا التياسر والتواضع الصادق من نفسه الطاهرة ، والذى هو صورة صادقة له ، لم ينقص من هيبته ولا محبته ، وقد قيل فى وصفه : من رآه بداهة هابه ، ومن عاشره أحبه ، فكانت علاقة أصحابه والناس به علاقة أدب جمّ ، وحبّ ووقار كامل ، ولم يتكبر ولكنه لم يرض سوء الأدب ، وكثيراً ما بيّن لأصحابه كيف يتصرفون فى حضرته ، وفى خطابه .

يقول السير وليم موير ، وهو من نقاد محمد الصرحاء ، فى وصف تواضعه وتياسره: « كانت السهولة صورة من حياته كلها ، وكان الذوق والأدب من أظهر صفاته فى معاملته لأقل تابعيه ، فالتواضع ، والشفقة ، والصبر ، والإيثار ، والجود ، صفات ملازمة لشخصه ، وجالبة لمحبة جميع من حوله ، فلم يعرف عنه أنه رفض دعوة أقل الناس شأناً ، ولا هدية مهما صغرت ، وما كان يتعالى ويبرز فى مجلسه ، ولا شعر أحد عنده أنه لا يختصه بإقباله وإن كان حقيراً .

وكان إذا لقى من يفرح بنجاح أصابه ، أمسك يده ، وشاركه سروره ، وكان مع المصاب والحزين شريكا شديد العطف ، حسن المؤاساة ، وكان فى أوقات العسر يقتسم قُوته مع الناس ، وهو دائم الاشتغال والتفكير فى راحة من حوله وهناءتهم »

ولسنا فى تاريخ محمد بحاجة إلى أحد ؛ فإن مما اختص به من بين رسل العالم وأبطاله ، وضوح حياته وجلاءها من جميع نواحيها ، وإنما سقنا عبارة السير موير هنا لشعورنا أنها صادرة عن إعجاب صادق ؛ ولو أننا درسنا سيرة محمد الدراسة اللائقة بها ، لكان اليوم حيًّا فى قلوبنا ، كما كان حيًّا بين أصحابه ، ولوجدنا الصورة التى طبعها على الوجوه بعمله وقوله ، لا تزال واضحة وضوح نفسه العظيمة ، المتحلية بأخلاق لا يغطيها طلاء ، ولا يحجبها رياء ، ولا تُرَى إلا على حالة واحدة فى الليل والنهار ، وفى السرّ والعلانية ، وفى الشدّة والرّخاء ، وفى الضعف والقوة ، فى السوق وهو فى شبابه ، وفى الشيخوخة وهو على عرش النبوة والملك . وكان محمد بأخلاقه شخصية من اليسر والتواضع لا تبديل ولا تغيير فيها ، هى النفس التى اتصلت بالسماء ، وعاشت على الأرض ، دانية إلى الناس ، محببة إليهم ، ففى كلّ أطوار حياته كان بطل الأبطال ، صلى الله عليه وسلم ، المثل الذى نحن اليوم أحوج ما نكون إليه ، ذلك المثل الذى قام عليه النظام الاجتماعى الإسلامى ، والذى جعل الناس سواء ، فى نطاق الأخوة الإسلامية ، لا يرفع من شأن أحدهم غنى أو جاه ، أو حسب أو نسب ، وإنما هو مؤمن تقىّ ، أو فاجر شقىّ ، والناس من آدم ، وآدم من تراب .

تعبده ونسكه

نسكه وتعبده صلى الله عليه وسلم ، صفة بارزة فى طبعه الكريم ، فقد كان يجد فى العبادة قرّة عينه ، وطمأنينة نفسه . ولو أنه كان من النساك الذين انقطعوا للرهبانيّة ، أو المتصوّفة الذين انصرفوا عن الدنيا ، لما كان فى نسكه وتعبده بدعاً ، وإنما الذى يلفت نظر الباحث فى حياة بطل الأبطال ، هو ذلك الجمع الغريب بين النسك الذى يبلغ أرق مراتب التعبد ، وبين القيام على أمور الدنيا التى كان يعيش فيها بكدّه ، ويعول كثيراً من الأهل والفقراء ، ويناضل أمة بأكملها ، ويسوس دولة فتية فى وجه العالم ، يوفد إلى الملوك ويدعوهم ، ويستقبل الوفود ويكرمهم ، ويبعث السّرايا ويقودها ، ويجادل مَن حولَه من أهل الأديان وأهل السلطان ، ويهيئ للنصر ، ويحتاط للهزيمة ، ويبعث العمال ، ويَجبى الأموال ويقسمها بنفسه ، ويقول : إن لم أعدِلْ فمن يعدِل ؟ ويشرع للناس دين الله فيفصّل المجمل من الوحى ، ويوضح الغامض ، ويرسُم السُّنَن ، فيخرج من الأصل فروعه ، ويرد ما لم يطلعه الله عليه إلى ما أطلعه الله عليه . وهو فى كل ذلك يؤدى العمل اليومى الذى ينوء به أبطال هذه الدنيا وبين هذه الهموم والمشاغل يتجلى محمد الناسك العابد بالليل والنهار أعظم انقطاعاً إلى الله ممن انقطعوا إليه فى رءوس الجبال .

ذلك الجمع بين الدين والدنيا يجعل من بطل الأبطال صلى الله عليه وسلم ، مثلا قائماً بنفسه فى تاريخ البشرية منقطع النظير . كان يقسم يومه جزءًا للعبادة ، وجزءًا للناس وجزءًا لأهله ، فإذا طغى ما للناس انتقص من الوقت الذى هو لأهله ، واحتفظ بما هو لله ، وقد واظب على ذلك مواظبة عجيبة تستحق مزيد الإعجاب من أنصاره وخصومه على السواء .

فقد كان مثلاً من الجد الكامل ، والتوجه الخالص ، إذا انصرف للعبادة انصرف بجملته ، وإذا قام بعمل آخر لم يَفْتُر عنه حتى يتمه ، وقد أجمع مؤرّخوه من أهل الملل المختلفة على أنه كان يعطى العمل الذى يشغله كل حسه وكل قلبه ، وكان

ذلك يتجلى فى علاقته بالناس ، فما حدثه أحد إلا التفت إليه بوجهه وجسمه ، وأصغى إليه تمام الإصغاء ، ولم يقطع الحديث حتى يكون المتكلم هو الذى يقطعه .

ذلك الجدّ الذى يلازم النفوس المؤمنة ، هو سرّ النجاح فى كل الأعمال ، سواء أكانت للدين أم للدنيا ، وفيه كان بطل الأبطال صورة صادقة منيرة لأصحابه وتلاميذه ، بل ذلك المثل من الجد فى كل شىء هو الذى أنجب ممن صحبه أكبر رجال الدولة ، وسوّاس الأمم ، فجعل من رُعاة الإبل والغنم ومن صغار الزُّرّاع والتجار خلفاء كسرى وقيصر ، يعلمونهما ما فاتهما من العدل والإحسان .

كان محمد بفطرته يحب النسك والعبادة ، ويجد فيها قُرة عينه ، فكان قبل الرسالة ينقطع شهراً فى غار حِراء خارج مكة للتعبد .

أَلِفَ النُّسْكَ والعبادةَ والخلـــوْةَ طِفْلا وهكذا النجباء
وإذا حلّتِ الهـدايةُ قَلْباً نَشِطَتْ للعبـادة الأعضاء

وقد اختلف الأصوليون والفقهاء فى صورة العبادة ، وطريقتها ، وعلى أيّة شريعة كان يتعبد ، وهذا الخلاف نفسه يلقى الشك فى تلك الأقوال والفروض ، والثابت تاريخيًّا هو أن عبادته كانت فكراً فى خالق الكون ، يدور حول الوجود والمشرف عليه ، فلم يُعلم عنه أنه كان يرعى سُنَن العبادات فى الشرائع التى سبقته ، فقد رفض الأديان كلها قبل أن يهتدى إلى الحقّ فى أمر الخالق ، حتى فى بعض ما لزمه من عبادة العرب كالحج ؛ فإنه لم يلتزم مذهب الحُمْس ، الذى هو مذهب عشيرته ، بل وقف وأفاض من عرفة كما يقف ويفيض الناس ، وحرم على نفسه كثيراً مما أحلت قريش فى جاهليتها ، فتبع ما يقره العقل الراجح ، واستمر طالباً الهداية ، باحثاً عن الحق ، ناسكا فى الوصول إليه ؛ عبادته التفكر والتأمل ، حتى أتاه اليقين . « وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ » ، ويقول القرآن ممتنًّا عليه : « وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى » . فلما جاءه الهدى أخذ يصلى ، فيخرج إلى شعاب مكة ، ومعه علىّ وهو صبىّ ، فيصليان مُستخفيين ، حتى إذا أمسيا رجعا .

حلت الهداية قلب محمد ، فتعلق بالله ، وفنيت نفسه فى حبه ، وإنا لنستطيع أن نقول : إنه صار معه فى حركته ، وسكونه ، ويقظته ، ونومه ، وبلغ به الفناء فى الذات العليّة أن صار يقف بين يدى خالقه حتى تتورَّم قدماه : يقول المغيرة بن شُعْبة : إن النبى كان يقوم ليصلى حتى تتورَّم قدماه أو ساقاه ، فيقال له ، فيقول :أفلا أكونُ عبداً شكوراً ! ويقول ابن مسعود ، صليت مع النبى ليلة ، فلم يزل قائماً حتى هممت بأمر سوء ، قيل : ما هممت ؟ قال : هممت أن أقعد وأذر النبىّ . ويروى عبد الله بن عمر بن العاص ، أن النبى قال له : أحبّ الصلاة إلى الله صلاة داود ، وأحبّ الصيام إلى الله صيام داود ، كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، ويصوم يوماً ، ويُفطر يوماً .

كان قيام الليل ، والتهجد فيه من عادته طول حياته ، صلى الله عليه وسلم ، وكان له فيه نجوى ودعاء ، ما أدله على ضراعته وفنائه فى حبّ الخالق وخشيته ! كان يقول : اللهمَّ لك الحمدُ ، أنتَ قَيِّمُ السمٰوات والأرض ومن فيهنَّ ، ولك الحمدُ ، أنتَ نورُ السمٰوات والأرض ومن فيهنَّ ، ولك الحمدُ ، أنتَ ملكُ السمٰوات والأرضِ ومن فيهنَّ ، ولكَ الحمدُ ؛ أنت الحقّ ، ووعدُكَ الحقّ ، ولقاؤُكَ الحقّ ، وقولُكَ الحقّ ، والجنةُ حقٌّ ، والنارُ حقٌّ ، والنبيون حقٌّ ، ومحمد حقٌّ ، والساعةُ حقٌّ ؛ اللهمَّ لكَ أسْلَمْتُ ، وَبكَ آمنتُ ، وعليكَ توكلتُ ، وإليكَ أنَبْتُ ، وبكَ خاصمتُ ، وإليكَ حاكَمْتُ ؛ فاغفرْ لى ما قدّمتُ ، وما أخّرْتُ ، وما أسررْتُ ، وما أعلنْتُ ؛ أنت المقدِّمُ ، وأنت المؤَخِّر ، لا إلٰهَ إلا أنتَ ، ولا حولَ وَلا قوَّةَ إلّا بالله . وها كم القرآن يخاطبه فى شأن التهجد : « يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ، نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ، أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا . إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا . إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا » ، فكان يفعل ما أمر به ، وفى ذلك يقول ابن رَوَاحة من شعراء الصحابة على عهد النبىّ صلى الله عليه وسلم .

وفينا رســـولُ الله يتلو كتابه إذا انْشَقَّ معرُوفٌ من الفجر ساطعُ

أرانا الهُدَى بعدَ العَمَى فَقُلُوبُنا به موقناتٌ أنَّ ما قالَ واقِعُ
يبيتُ يجافِي جنبَه عن فراشِه إذا استَثْقَلَتْ بالمشركين المضاجعُ

حلت الهداية قلب محمد ، فعلق بالله فى كلّ شىء ، فهو ذاكره ، واثق به ، مراقب له ، مطيع ، خائف ، محبّ ، خاشع آناء الليل وأطراف النهار ؛ فإذا جاءه أمر يحبه قال : الحمدُ لله الذى بنعمتِهِ تتِمُّ الصالحاتُ ؛ وإذا أتاهُ أمرٌ يكرهه قال : الحمدُ لله على كلّ حالٍ ؛ وإن قصد فعل شىء قال : اللهمَّ خِرْ لى واخْتَرْ لى ؛ وإنْ أراد سفراً قال : اللهمَّ بكَ أصولُ ، وبكَ أجولُ ؛ وإن أراد نوماً قال : اللهم باسمك وضعتُ جنبى ، وباسمِكَ أرْفَعُهُ ؛ وإنِ أستيقظ قال : الحمدُ لله الذى أحيانا بعد أن أماتنا وإليه النُّشُورُ ؛ وإن لبس ثوباً جديداً قال : الحمدُ لله الذى رزقنى ما أتجمَّل به فى حياتى ؛ وإن أكل قال : الحمدُ لله الذى أطعمنا وسقانا ، وجعلنا مسلمين ؛ وإن شرب قال : الحمدُ لله الذى جعل الماء عذباً فراتاً برحمته ، ولم يجعله مِلْحاً أُجاجاً بذنوبنا وإذا انقلب من الليل فى فراشه قال : لا إله إلا اللهُ الواحدُ القهار ، ربُّ السمٰوات والأرضِ وما بينهما العزيزُ الغفارُ ؛ وإذا هبّ من نومه فى الليل قال : ربّ اغفرْ وارحمْ ، واهْدِ للسبيل الأقوم .

تعلق قلبُ محمدٍ بالله فهو معه فى كلّ عمل وحين ، وشُغِف بالعبادة والنسك ، فهو يقومُ الليل ، ويصرف فيها جزءاً من النهار ، ويجد فى الصلاة لذّته وقُرّة عينه ، وينهى أصحابه أن يقلدوه فيما لا طاقة لهم به . تقول عائشة كان رسولُ الله يدعُ العملَ وهو يحبّ أن يعمل به ، خشيةَ أن يعمل الناس به ، فيفرض عيهم . ويروى أنس أن النبيّ واصلَ : أى سام مُواصلاً الليلَ بالنهارِ ، والنهارَ بالليلِ ، يومين أو ثلاثة ، وكان ذلك فى آخر رمضان ، فواصل ناس معه ، فبلغه ذلك ، فقال : لو مدّ لنا الشهر لواصلنا وِصالاً يدع له المتعمقون « أى المبالغون » تعمقهم . إنى لست مثلكم ، إنى أظَلُّ يُطْعمنى ربى ويسقينى ، « أى يعيننى ويقوّينى » ، وتقول عائشة : صلى رسول الله فى المسجد ، فصلَّى بصلاته ناس كثير ، ثم صلَّى من القابلة ، فكثُرُوا ، ثم اجتمعوا من الليلة الثالثة ، فلم يخرج إليهم ، فلما أصبح قال : قد رأيت صنيعكم ، فلم يمنعنى من الخروج إليكم إلا أنى خشيت أن تُفْرَض عليكم ، ويقول أنس : كان

رسول الله يقوم فى رمضان ، فجئت فقمت إلى جنبه ، فجاء رجل آخر ، فقام أيضاً ، حتى كنا رهطاً ، فلما أحس أنّا خلفه ، جعل يتجوّز فى صلاته « أى يسرع » ، ثم دخل رحله فصلّى صلاة لا يصليها عندنا ، فقلت له حين أصبحت : أفطنت لنا الليلة قال : نعم ، ذلك الذى حملنى على ما صنعت .

لاشك أن نفس محمد المتصلة بالله ، تستطيع مالا يستطيع الناس ، فهو يودّ أن ينفرد بما فوق الطاقة ، فإذا نشط أصحابه لمتابعته ، خشى عليهم التعمق والغلوّ ، وهو الناسك الذى بلغ فى تعبده مقاماً لا يدانى ، وهو الرسول الذى جاء بالحنيفية الميسّرة ، تلامس حقائق الحياة ، فخليق به أن يغضب إذيرى الناس يهمّون بترك الدنيا والانقطاع للعبادة ، والله تعالى يقول : « وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ، وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ، وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ » .

رأى أحد أصحابه فى سفر مغارةً بجانبها ماء وخضرة ، فمالت نفسه للعزْلة بهما والتعبُّد ، فغضب ، وذكر له أنه ما جاء باليهودية ، ولا النصرانية ، وإنما جاءهم بدين إبراهيم ميسّراً سهلاً . وأراد بعض الصحابة ، ميلاً بفطرته ، أو تأثراً بالرهبانية ، أن ينقطع للعبادة ، فغضب غضباً شديداً ومنعه ؛ وأراد آخر أن يمتنع عن أكل اللحم تنشطاً وتعبداً ، فردّه . ويقول أنس : كنا مع النبىّ فى سفر ، فمنا الصائم ، ومنا المفطر ، فنزل منزلاً فى يوم حارّ ، أكثرنا ظلاً صاحب الكساء ، ومنا من يتقى الشمس بيده ، فسقط الصُّوّام ، وقام المفطرون ، فضربوا الأبنية ، وسَقُوا الرِّكاب ، فقال صلى الله عليه وسلم : ذهب المفطرون اليوم بالأجر .

وقد نفذت أوامره بالاعتدال والقصد فى كل شىء إلى قلوب أصحابه ، وأدركوا مقصد أستاذهم الأعظم ، فأخذ بها بعضهم بعضاً ، حتى إن سلمان الفارسى دخل بيت أبى الدرداء ، وكانا ممن آخى بينهم النبىّ فى المدينة ، فوجد امرأته متبذِّلة ، فقال لها : ما شأنك ؟ قالت : أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة فى الدنيا ، فجاء أبو الدرداء ، فصنع له طعاماً ، فقال : كُلْ ، فإنى صائم . قال : ما أنا بآكل حتى تأكل ، فأكل ، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم ، قال : نم ، فنام ، ثم ذهب يقوم ، قال : نم ، فلما كان آخر الليل قال سلمان : قم الآن ، فصلّيا ؛ فقال سلمان : إن لربك

عليك حقًّا ، ولنفسك عليك حقًّا ، ولأهلك عليك حقًّا ، فأعط كل ذى حقّ حقّه ، فأتى النبيّ فذكر ذلك له ، فقال النبيّ : صدق سلمان .

وعن أنس بن مالك قال : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبيّ ، يسألون عن عبادته ، فلما أُخبروا كأنهم تقالُّوها ، فقالوا : وأين نحن من النبى ؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ! فقال أحدهم : أما أنا فإنى أصلى الليل أبداً ، وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوّج أبداً ، فجاء رسول الله إليهم فقال : أنتمُ الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إنى لأخشاكم لله ، وأتقاكم له ، لكنّى أصومُ وأفطر ، وأُصلِّى وأرْقد ، وأتزوّج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى .

ذلك هو التوسط الذى أراده محمد ، وكان فيه أعجب رجال التاريخ ، فهو برَغم خشيته أن يميل الناس عن القصد ، وأن يُفْرطوا ويُكلِّفوا أنفسهم ما لا يُطيقون ، كان المثل الأعلى فى التعبد والنسك ، كما كان فى الرجولة ، وتصريف شئون الدنيا ، والقيام عليها .

والآن أعود إلى نوع من تعبده ، ما أحلاه لفظاً ! وأسماه معنى ! ذلك هو الدعاء ، والدعاء كما قال صلى الله عليه وسلم ؛ هو العبادة : « وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ » .

انظروا إلى هذا الدعاء ، وما فيه من الضراعة والتسليم الكامل : « إنَّ صَلاَتِى ونسُكِى وَمَحْيَاىَ ومَمَاتِى للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، لاَ شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَلكَ أُمِرْتُ ، وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ اللهمّ اهدنى لأحسن الأعمالِ ، وأحسنِ الأخلاقِ ، لا يَهْدِى لأحسنها إلا أنت ، وقِنى سَيِّئَ الأعمال ، وسَيِّئَ الأخلاق لا يقى سيئها إلا أنت ؛ اللهم لك ركعتُ ، وبك آمنتُ ، ولك أسلمت ، وعليك توكلتُ ؛ أنت ربى ، خَشَعَ سَمْعِى وبصرى ولَحْمِى ودمى وعَظْمى لله ربِّ العالمين . اللهمَّ اغْفِرْ لى ما قدَّمت ، وما أخَّرْت وما أسْرَرْتُ ، وما أعلنتُ ، وما أسرفتُ ، وما أنتَ أعلمُ به منِّى ، أنتَ المقدّم ، وأنتَ المؤخِّرُ ، لا إلَهَ إلا أنْتَ .

ذلكم هو محمد صلى الله عليه وسلم وصل فى نسكه وعبادته إلى أرقى مراتب

الإخلاص لله ، والتفانى فى طاعته وحبه ، والمثول الدائم فى حضرته ، ووصل فى شئون الدنيا إلى إقامة دولة من أنقاض الهمجية ، وإلى إبراء المجتمع من علل الاضطراب والفساد ، فنى شخصه التقت أغراض الحياة جميعاً على أكمل وجوهها .

تلك الناحية من صفات بطل الأبطال يحنى لها الناس جميعاً رءوسهم ، وإذا رفع إليها أبطال العالم أبصارهم غضّوا الطرْف أمام الإعجاز المحمدى ، فما كان رجل ممن ملأ السمع والبصر من رجال التاريخ ليقوى على حمل هذا العبء الروحانى ، من العبادة فى الليل والنهار ، وتلقّى أعمال الدنيا فى كلّ يوم على أنشط ما يكون ، وأصلح ما يكون لخدمة نفسه وقومه ، وكفاح أعدائه ، وإقامة الدولة الخالدة ، التى تركها بطل الأبطال صلى الله عليه وسلم فى نشأتها وصولتها .

عفــوه وصفحــه

عفوه وصفحه صلى الله عليه وسلم عمن أسرفوا فى إيذائه ، هو الخلق الكريم الذى أدبه به القرآن ، قال تعالى : « خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » وبيّن الوحى معناه بقوله : « أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ ، وَتُعْطِي مَنْ حَرَمَكَ ، وتَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ » فالعفو عند القدرة مرآة تتجلى فيها أحسن صور النفس ، يتجلى فيها سمو المقصد ، وبعد الغاية ، والترفع عن الشهوات ، وتبدو البطولة فى أروع صورها ... ولن تجد فى تاريخ الأبطال ، بل تاريخ البشر كلهم مثل محمد ظافراً ، ناجحاً ، مؤيَّدا ، يعطى من حرمه ، ويعفو عمن ظلمه .

كانت مكة والطائف مركزى العداوة الشديدة ، تتنافسان فى الوفاء للّات والعُزَّى ، فلم يكن شرّا على محمد من قريش ، ولا أرغب فى الشرك من ثقيف ، وبرز فى القريتين رجال مثل أبى جهل بن هشام ، وعِكْرِمة ابنه ، وأُمية بن خَلَف ، وصفوان ابنه ، والعاص بن وائل السَّهمى ، والوليد ابن المغيرة ، وأبى سُفيان ابن حَرْب ، وبنى عمرو بن عمير الثلاثة ، وأبى مسعود الثقفى ، ومالك بن عوف ، وأضرابهم ، ممن اتخذوا إيذاءه صلى الله عليه وسلم والسخرية به وقتاله وجوه مُتْعة بها يلتذون ، ومفخرة بها يفاخرون .

وينقسم ذلك الأذى والاضطهاد فى رأيى إلى أربعة أطوار ، ويبتدىء الطور الأول بإيذائه ، والتصغير من شأنه ، وقت أن كان مثل أبى لهب يقول له ؛ وهو يُنْذِر الناس فوق الصفا : تَبًّا لكَ ! أَلِهٰذَا دَعَوْتَنَا ؟ والطور الثانى يبتدىء بصحيفة المقاطعة ، وهى ميثاق عُلِّقَ بالكعبة ، وتعاهد فيه المشركون على مقاطعة بنى هاشم ، لحمايتهم ابنهم محمدا صلى الله عليه وسلم فكاد يهلك ذلك البيت جوعاً ؛ وهو مقطوع فى شِعْب بنى هاشم . كان هذا الطور شديداً ، فإن الميثاق المقدّس حرّم على الناس أن يتزاوجوا مع آل محمد ، أو يبيعوهم ، أو يشتروا منهم ، أو تكون لهم بهم صلة ما . ويبتدىء الطور الثالث بوفاة أبى طالب عمه وحاميه ، وخديجة

زوجه ومؤاسيته ، حين نثر التراب على رأسه ، وضاقت عليه الدنيا ؛ ولولا الإيمان والنبوة الصادقة لانتهى به الأمر إلى الانتحار ، أو أن يهيم على وجهه فى الأرض .

فى ذلك الطور خرج إلى الطائف وحده يلتمس حماية ثقيف ؛ والامتناع بهم من قومه ، فردُّوه أشنع ردّ ، وسخر به زعماؤها الثلاثة من بنى عمرو بن عمير ، فقال له أحدهم : أما وجدالله أحداً يرسله غيرك ؟ وقال الآخر : والله لا أكلك أبداً .. لئن كنت رسولا كما تقول لأنت أخطر من أن أردّ عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ، ما ينبغى لى أن أكلك ، فسألهم محمد أن يكتموا عليه ، وقال لهم إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا ذلك عنى ، وكان يخشى سوء المنقلب إلى مكة ، والشماتة والغلو فى إيذائه ، فأبوا حتى هذه عليه ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يَسُبونه ، ويصيحون به ، حتى أخرجوه من البلد ، وتتبعه الصبية والسوقة يصيحون مسيرة ثلاثة أميال ، يعبَثون به ، ويقذفونه بالحجارة ، حتى أدموا قدميه ، وكلما جلس أقاموه ، وأجبروه على المشى ، فلجأ إلى حائط[1] لعتبة بن ربيعة ، فلما اطمأن قال : « اللهم إليك أشكوا ضعف قوّتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس . يا أرحم الراحمين ! أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يَتَجَهَّمُنِى ؟ أم إلى عدوّ ملّكته أمرى ؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تُنزل بى غضبك ، أو تحلّ علىّ سخطك ، لك العتْبَى حتى ترضَى ، ولا حول ولا قوّة إلا بك » . فلما رجع إلى مكة لم يستطع أن يدخلها إلا فى حماية مُطْعِم بن عدىّ ؛ ثم اختتمت مكة هذا الطور من أطوار الإيذاء بالعزم على قتله ، وتفريق دمه بين القبائل ، حتى يعجز عن طلبه بنو عبد مناف . فهاجر إلى المدينة ، وابتدأ بذلك الطور الرابع . وحديث هجرته إليها ، وما لقى فى طريقه مشهور .

انظروا بعد ذلك إلى معاملته لأهل مكة والطائف ، ورؤساء الفتنة ، وزعماء الشر ، الذين أسرفوا فى إيذائه واضطهاده ، لتتجلى لكم نفسه الكريمة فى مرآة

(١) الحائط : البستان .

عفوه وصفحه الجميل . انظروا إليه فاتحاً فى جيش لم تر جزيرة العرب مثله يكتسح مكة ، وتطؤها خيله ، ويمرّ إلى حُنَيْن والطائف ، فيقع بين يديه ستة آلاف من أسرى هوزانَ وثَقيف ، ويفر من بقى من السادة المتكبرين ، ومالك بن عوف ، وياليلُ ابن عمرو بن عمير . انظروا إليه والبلاد فى رحمته يشملها عفوه ، والسادة والزعماء الذين عَتَوْا فى الأرض يُجزَوْن بالبرّ والإحسان ، وأبطال العالم لا تعرف لأمثالهم غير قطع الرءوس .

هذا محمد فى ذِرْوة المروءة لا يُدَانى ، وقبل أن يصل الجيش الفاتح إلى مكة خرج أبو سفيان فى ثلاثة نفر مستطلعاً ، فعلم أن لا طاقة له ولقومه بلقاء محمد ، فأردفه العباس على بغلة النبىّ التى كان يركبها ، ودخل به المعسكر ليلا ، يطلب الأمان له ولمكة ، فكان كلما مرّ بنار من نار المسلمين قالوا : هذا عم النبى على بغلته ، حتى مرّ بنار عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقال : من هذا ؟ فلما رآى أبا سفيان على عجز الدابة ، قال : أبو سفيان عدو الله ! الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد .. ثم سارع إلى رسول الله يقول : دعنى أضرب عنقه ، فقد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد ، ولكن رسول الله أمر أن يبيت أبو سفيان فى رحل العباس . فلما أصبح جىء به ، فأسلم وعفا عنه ، فقال العباس : يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل يحبّ الفخر ، فاجعل له شيئاً ، فقال : نعم ، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن . وعاد أبو سفيان إلى مكة مسرعاً ، والجيش يزحف إليها ، وهو يقول : والله ما لأحد بهؤلاء قِبل ولا طاقة ! فلما جاء قومه صرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قِبَل لكم به ، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن . فقالوا : قاتلك الله ! وما تغنى عنا دارك ؟ فقامت هند بنت عتبة زوجه التى لاكت كبد حمزة يوم أحد ، فأخذت بشاربه ، وقالت : اقتلوه ، قُبِّحَ من طليعة قوم ! فقال أبو سفيان : ويلكم لا تغرّنكم هذه عن أنفسكم ، فإنه قد جاءكم ما لا قِبَل لكم به ، مَنْ دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن .

أىّ مثل فى العفو الكريم أعظم من هذا ؟ أبو سفيان الذى فعل الأفاعيل والذى أدمى كبد الرّسول فى أحد ، والذى زلزل بحصاره المسلمين فى الخندق ، أبو سفيان العاقّ من ولد عبد مناف ، الذى ناصر مخزوماً وسَهْماً على محمد وبنى هاشم ، يعفو عنه محمد ، ثم يعطيه مع العفو ما يفخر به ! وقد كانت هبة الحياة كلّ الرّجاء ، فإذا الحياة والجاه بعض عطايا محمد للمقهورين من أعدائه .

دخل رسول الله مكة ، ولكن عِكرمة بن أبى جهل ، وصفوان بن أميَّة ، وسُهيل بن عمرو ، ومن جَمَعوا من الناس أَبَوْا إلا قتالاً ، فهزِموا وفرُّوا ، ثم استأمنوا فأُمِّنوا ، بل عُفِىَ عنهم ، بل أُعطوا من غنائم هوازن ، تأليفاً لقلوبهم !

وانظروا إلى مثلٍ لن تجدوا له شبيهاً فى تاريخ البشرية ، هذا صفوان بن أمية العدوّ ابن العدوّ يفرّ إلى جُدّة ، ليبحر إلى اليمن ، فيأتى عمير بن وهب لرسول الله ، فيقول : يا نبىّ الله ، إن صفوان ابن أمية سيد قومه ، قد خرج هارباً منك ، ليقذف نفسه فى البحر فأمّنه ، قال : هو آمن . قال : يارسول الله ، فأعطنى آية يعرف بها أمانك ، فأعطاه الرسول عمامته التى دخل فيها مكة ، فخرج بها عُمَير حتى أدركه ؛ وهو يريد أن يركب البحر ، فقال : ياصفوان ، فداك أبى وأمى ! اللهَ اللهَ فى نفسك أن تهلكها ! فهذا أمان رسول الله قد جئتك به ، قال : إنى أخافه على نفسى ، قال : هو أحلم من ذاك وأكرم . فرجع معه حتى وقف به على رسول الله ، فقال صفوان : إن هذا يزعم أنك قد أمّنتنى ؟ قال : صدق . قال : فاجعلنى فيه بالخيار شهرين . قال : أنت بالخيار أربعة أشهر .

هذا العدوّ ابن العدوّ صفوان بن أمية لا يَلْقَى من برّ رسول الله أن يعفو عنه فحسب ، بل يبعث عمامته التى فتح بها مكة تطميناً للهائم على وجهه إلى البحر ، ثم إذا ما طلب منه أن يتركه ليختار الإسلام أو الشرك شهرين ، قال : بل أربعة ، كى لا يقهره ولا يذله ، فهل فى تاريخ البشر مثال من العفو عند القدرة أبرّ وأكرم من هذا الذى فعله بطل الأبطال محمد صلى الله عليه وسلم !

وهذا رجل آخر جاءه قُبَيْل الفتح ، وكان عاقًّا مسرفاً فى هجوه وإيذائه للرسول ، هو أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وطلب الإذن عليه ، فقال : لا حاجة لى به

وقد هتك عرضي ! وكان مع أبى سفيان بُنَىٌّ له ، فقال : والله ليأذنن لى ، أو لآخُذَنَّ بيد بُنَىَّ هذا لنَذْهَبَنّ فى الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً . فلما بلغ ذلك رسول الله رقّ له ، فدخل عليه وعفا عنه ، فقال :

لعمرك إنى يوم أحمل رايةً لِتغلبَ خيلُ اللاتِ خيلَ محمدِ
لـكالمُدْلِـج الحيران أظلم ليـُله فهذا أوانى حين أُهْدِى وأهتدى

وفى مكة وهو طائف بالبيت أراد فُضالة بن عمير أن يقتله ، فلما دنا منه قال : أفضالة ؟ قال : نعم ، فضالة يا رسول الله . قال : ما كنت تحدث به نفسك ؟ قال : لا شىء ، كنت أذكر الله عز وجلّ ، فضحك النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : استغفرْ الله ! ثم وضع يده على صدره ، فسكن قلبه ، فكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما مِنْ خلق الله شىء أحبُّ إلىّ منه .

ثم ها كم مثلا من عفوه عن رجل أبكاه ، وقهر المسلمين ، وحَزَنهم ، وهو عبدٌ حبشىّ يقال له : وَحْشِىّ ، ذلك هو قاتل حمزة . يقول وحشىّ : خرجت حتى ملت إلى رسول الله بعد فتح مكة والطائف ، فلم يرُعه إلا بى قائماً على رأسه أتَشَهَّد بشهادة الحقّ ، فلما رآنى قال : أوحشىّ ؟ ! قلت : نعم يا رسول الله ! قال : اقعد فحدثنى كيف قتلت حمزة ؟ قال : فحدثته ، فلما فرغت من حديثى قال : ويحك ! غَيِّب عنى وجهك ، فلا أَرَيَنَّكَ ، قال : فكنت أتنكب رسول الله حيث كان ، لئلا يرانى ، حتى قبضه الله .

ذلكم هو ضبط النفس والعفو فى أحسن صوره . رجل لا يستطيع رسول الله أن ينظر إلى وجهه ؛ وهو قاتل عمه ، وهو عبد لا أصل له ولا عشيرة ، يعفو عنه ، وأحب شىء إلى المسلمين أن يروا دمه كما رأوا أحشاء حمزة الذى طعنه بحربته .

ولما اطمأن الناس بعد الفتح قام رسول الله على باب الكعبة ، فقال : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبدَه ، وهزم الأحزاب وحدَه ، ألا كل مَأْثُرة أو دم أو مال يُدَّعَى فهو تحت قدمى هاتين ، إلا سِدانة البيت وسِقاية الحاج . يا معشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتَعَظُّمَهَا بالآباء ، الناس من آدم ، وآدم من تراب . ثم تلا هذه الآية : « يٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ

مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ » ثم قال : يامعشر قريش ، ماتظنون أنى فاعل فيكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم . قال اذهبوا فأنتم الطُّلَقَاء . . .

ثم جلس رسول الله ، فقام إليه على بن أبى طالب ومفتاح الكعبة فى يده ، فقال : يارسول الله ، اجمع لنا الحجابة مع السِّقاية (وكانت الحجابة فى غير بنى هاشم) ، فقال رسول الله : أين عثمان بن طلحة ؟ فدُعِى له ، فقال : هاكَ مفتاحَك ياعثمان ، اليوم يوم برّ ووفاء .

وها هى ذى ثقيف كلها بين يديه ووفدها فى المدينة ، وقد أكلتها العرب ، وهانت على الناس ، فماذا فعل بها ، وفى وفدها رجل مثل ياليل بن عمرو بن عُمير الذى طرده من الطائف ؟ أما مالك بن عوف فذلك من سبق إليه عفوه ، فردّ إليه ماله وأولاده ، ووهب له مائة ناقة ؛ وأما هؤلاء فقد رجعوا إلى أهليهم بعفو شامل وأمان كامل ، ولولا ضيق المقام لسمعتم قصة هوازن ، وكيف ردّ الرّسول سَبْيَها ، واشتراه ديناً عليه لأصحابه ، ليعطيه أعداءه الذين كادوا يقضون على الإسلام يوم حُنَين ، ولسمعتم من هذه الأمثلة آيات فى كلّ قبيلة وكلّ بلد ، مما تنقضى الأيام ويبقى فيها رسول الله المثل الأعلى ، والقدوة الحسنة للناس جميعاً .

رحمته وبره

جانبٌ عظيم من جوانب شخصية محمد صلى الله عليه وسلم هو جانب رحمته وبره ، الذى لا يدانيه فيه أحد ، وهو صورة لنفسه الكريمة ، فى أيام فقره وغناه ، وضعفه وقوته ، فقد كان البرّ إمامه ، والرحمة محيطة به ، وهو الذى يقول : « إن البرَّ يَهْدِى إلى الجنة . ارْحَمُوا مَنْ فى الأرضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فى السَّماء ، لا يرحم الله من لا يرحم الناس ، الراحمون يرحمهم الرحمن ، لا تنزع الرحمة إلا من شقىّ » ، وقد وصفه القرآن بهذه الصفة قال تعالى : « لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيم »

كانت رحمته تسع الناس جميعاً ، وكان برُّه يصل إلى المؤمنين والمشركين ، وكان الفقراء والضعفاء أقرب الناس إلى قلبه الكبير ، وعطفه الشامل ، وبلغ حبه الفقراء أن دعا الله أن يبقى فيهم حَيًّا وميتاً . روت عائشة أنه كان يقول : « اللهم أحْيِنى مِسكيناً ، وأمِتنى مسكيناً ، واحشرنى فى زمرة المساكين » فقالت عائشة : لِمَ يا رسول الله ؟ قال : إنهم يدخلون الجنة قبل الأغنياء بأربعين خريفاً . يا عائشة لا تَرُدِّى المسكين ولو بِشِقِ تَمْرة . يا عائشة ، أحبى المساكين وقرّبيهم يقربْك الله يوم القيامة » .

كانت حياته موصولة بالفقراء ، وكان كلُّ ما فى بيته ويده لهم ، وبلغ من عطفه عليهم أن مرَّ رجل عليه ، فقال لرجل عنده : ما رأيك فى هذا ؟ فقال رجل من أشراف الناس ، هذا والله حَرِىٌّ إن خطب أن يُنْكَح وإن شفع أن يشفَّع . فسكت النبى ؛ ثم مرَّ آخر ، فقال النبى : ما رأيك فى هذا ؟ فقال : رجل من فقراء المسلمين ، هذا والله حَرِىٌّ إن خطب ألاّ يُنْكَحَ ، وإن شفع ألا يُشَفع ، وإن قال ألا يُسْمع لقوله ؛فقال صلى الله عليه وسلم : هذا خير من ملء الأرض مثل هذا .

لقد عمل محمد بما آتاه الله ، وما أودع فطرتَه من الرحمة ، على رفع شأن الفقير وإكرامه ، والأخذ بيد الضعيف ، وأرسل برَّه فى هذه الطبقة ، حتى قلب نظام

المجتمع الذى ظهر فيه فى سنين قليلة ، وجعل من الفقراء المستضعفين أمة دان لها المشرق والمغرب فيما بعد ؛ كما كان يقول صلى الله عليه وسلم : « ابغونى ضعفاءكم ، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم » وكان يسره أن يجتمعوا إليه . وقد آثر بالحديث مرة واحدة بعض الأغنياء الأقوياء من قومه ، فنزل القرآن بمعاتبته ، فقال : « عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى »...الخ ، وطالما سخرت قريش منه لحفاوته بالمساكين ، وذهابه بهم إلى الحرم ، فقالت أهؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عليهم من بيننا ؟ ، ولكنه كان بالمساكين رءوفاً رحيما . يقول عبد الله بن عمرو بن العاص : دخل النبى المسجد ، فجلس إلى الفقراء ، وبشرهم بالجنة ، وبدا على وجوههم البشر ، فحزنت ، لأننى لم أكن منهم . ورأى سعد بن أبى وقاص يتعالى على المساكين ، فذكر له أن ما ينال من الخير والنصر ، إنما هو أثر هؤلاء الفقراء ، وأنه مدين للمساكين ، وقد تحقق ذلك واضحاً جليا حينما قاد سعد هؤلاء الفقراء المستضعفين إلى القادسية ، فهزم رُسْتم ، ووطىء دولة الأكاسرة ، التى كان العرب بعض رعاياها .

كانت رحمته وبرُّه بالمساكين تمتد إلى ما بعد الموت . جاء فى صحيح البخارى « أن النبىَّ ذكر ذات يوم رجلاً أسود ، فقال ما فعل ذلك الإنسان ؟ قالوا : ماتَ يا رسول الله ، قال : أفلا آذنْتُمونى ؟ فقالوا : إنه كان كذا وكذا قصته ، فحقروا من شأنه ، قال : فدلونى على قبره ، فأتى قبره ، فصلى عليه » .

وكان صلى الله عليه وسلم يجاهد لتحرير العبيد ، ولرفع قيمتهم ، فلم يدخر مالاً ، ولا سلطاناً ولا دعوة فى سبيلهم ، وكانت نفسه تفيض بالرحمة عليهم والبر بهم ، وأظهر مثل ما كان منه مع مملوكه زيد بن حارثة ، الذى خيِّر بين سيِّده محمد ووالده ، فاختار محمداً فى الوقت الذى كان لا حول له ولا قوة ، بل كان موضع أذى قريش وسخريتها ، وهو الذى جعل معتوقه زيداً هذا ، القائد الأعلى للمهاجرين والأنصار حين وجههم لغزو الروم ، فاستشهد فى وقعة مُؤتَةَ ، ، ولما استأنف النبى غزو الروم بعد الفتح أمّر شابا ابن رقيق ، هو أُسامة بن زيد هذا وهو حدَث فى العشرين ، ومشى أكابر الصحابة وأشراف قريش والنبى فى موكبه .

أرأيتم إذن كيف رفع برحمته وبرّه شأن الأرقّاء المستعبدين ؟ وكان صلى الله عليه وسلم يقول : « لايدخل الجنة سَيِّئُ الملكة ، ويقول : حُسْنُ الملكةِ يُمْنٌ وسوء الملكةِ شؤْمٌ » .

وكان بارًّا بالخدم والعمال ، روى أبو هريرة أن النبيّ قال : « إذا أتى أحدَكم خادمُه بطعامه ، فإن لم يجلس معه فليناوله لقمةً أو لقمتين » ! وقال معاوية بن سويد : كنا بنى مقرن على عهد رسول الله ليس لنا خادم إلا واحدة ، فلطمها أحدنا ، فبلغ ذلك رسول الله فقال : أعتقوها ، فقيل . ليس لهم خادم غيرها . قال : فليستخدموها ، فإذا استغنوا عنها فليخلوا سبيلها . وعن أبى مسعود قال : ضربت غلاماً لى بالسوط ، فسمعت صوتاً من خلفى ، فإذا برسول الله يقول : اعلم ياأبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام . وبلغ من رحمة محمد أنه كان لايطيق أحداً يقول : عبدى أو أَمَتى ، فأمر المسلمين أن يكفُّوا عن ذلك ، وأن يقولوا : فتاىَ وفتاتى ، وقد كان لهذه التربية أحسن الأثر فى تحرير الأرقّاء ، ونشر المساواة ، وتغليب روح الأخوّة على ما كان من العصبية ، والغرور ، والتفاخر .

يقول المَعْرُور بن سُويد : رأيت أبا ذَر وعليه حُلَّة ، وعلى غلامه مثلها ، فسألته عن ذلك ، فقال : سمعت رسول الله يقول : هم إخوانكم جعلهم الله تعالى تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم من العمل مايغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه . وقال أنس : خدمت رسول الله عشر سنين ، فما قال لى أفٍّ قَطُّ ، وكان صلى الله عليه وسلم يخالط المساكين والخدم والعبيد ويحادثهم ويجيب دعوتهم ، ويعود مرضاهم ، ويمشى فى جنائزهم ، ويصلى عليهم ، وقد جعلت الشريعة المحمدية نصيباً فى بيت المال لتحرير الأرقّاء ، وكان صلى الله عليه وسلم يعطى العبد بعد تحريره شيئاً يعينه على الكسب .

لم يكن رسول الله ليقصر رحمته وبرّه ، الذى هو صورة صادقة لنفسه الكريمة ، على الناطقين من بنى الإنسان ، فإن هذه الرحمة ملكت مشاعره ، وحفزته لكفاح موفّق فى سبيل الرفق بالحيوان ، فكم كان للعرب من عادات مرذولة أنكرها وأزالها . كانوا يقتطعون من حيواناتهم ؛ وهى حيّة فيشوون ويطعمون ، فحرم ذلك ،

ولا يزال إلى اليوم بعض الطوائف فى الصحراء الكبرى برغم إسلامهم يعملون شيئاً من هذا ، فهم إذا خرجوا للغزو ، وبعدت عليهم الشُّقة ، فصدوا البعير ، فأخذوا من دمه ، وطبخوه وأكلوه ، أو شقوا عن سنامه فاقتطعوا من الدهن ، ثم خاطُوا السنام ، وأكلوا الدهن . وكان وشْم الحيوان ، ولا يزال ضرورة لإثبات الملكية فى البادية ، فنهى عن ذلك الأذى ، وخففه باختيار أقلّ الأثر فى أقلّ الأعضاء إحساساً . وكان العرب يتخذون من دوابهم أهدافاً للرِّماية ، فنهى عن ذلك ، وعن أن يقطعوا ذيول الخيل . ومرّ مرّة بناقة مربوطة جائعة ، فحلّ وثاقها وأطلقها . وأوصى الناس أن يخشوا الله فى البهائم ؛ ومن الأمثلة التى ضربها صلى الله عليه وسلم أنه قال : بينما رجل يمشي بطريق اشتدّ عليه العطش فوجد بئراً ، فنزل فيها ، فشرب ثم خرج وإذا كلبٌ يَلْهَثُ ، يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلبَ من العطش مثلُ الذى كان بلغ منى ! فنزل البئر ، فملأ خُفَّه ماء ، ثم أمسكه بفيه حتى رقِىَ ، فسَقَى الكلب ، فشكر اللهُ تعالى له ، فغفر له » فقالوا : يارسول الله ، وإن لنا فى البهائم لأجراً ؟ قال : فى كلّ كبد رَطْبَةٍ أجر . وقال أيضاً : دخلت امرأة النار فى هِرَّة رَبَطَتْهَا ، فلم تُطْعمها ، ولم تدعها تأكلُ من خَشَاشِ الأرض .

تلك الأمثال يضربها محمد لقوم ماكانوا يظنون فى الرفق بالحيوان أجراً ، وقد كان لها أكبر الأثر من الرحمة والرفق فى نفوس المسلمين ، ومن تأدب بأدبهم فى الشرق والغرب ، وكان من عادات الجاهلية أن يتخذوا ظهور دوابهم منابر ، فنهى عن ذلك ، وقال : إنما سخّرها اللهُ لكم لتبلّغكم إلى بلدٍ لم تكونوا بالغيه إلا بشقّ الأنفس ، وجعل لكم الأرض ، فعليها فاقضوا حاجاتكم .

وهذه رحمته يفيض بها قلبه الكبير على عصفور صغير : قال عبد الرحمن ابن عبد الله ، كنا مع رسول الله فى سفر ، فرأينا حُمَّرَةً ، [طائر فى شكل العصفور] معها فَرخان لها ، فأخذناهما ، فجاءت الحمرة تَعْرِش [أى ترفرف] ، فلما جاء الرسول قال : من فَجَعَ هذه بولدها ؟ رُدُّوا ولدها إليها . وقال صلى الله عليه وسلم فى قسوة عائشة على بعير ركبته : « من يُحْرَمِ الرِّفق يُحْرَم الخيرَ كله » .

هذه الرحمة بالإنسان والحيوان كانت تظهر أُنساً وبِشْرا فى وجهه إذا رأى الطفل ،

أو لَقِيَ الصبيّ ، فقد كان يأخذ أطفال أصحابه بين ذراعيه ، ويطربُ لذلك ، وكان إذا مرّ بالصِّبْيَة يُقرِئهمْ السلام . وحدّث جابر بن سَمُرة : أن النبيّ رأى صِبْيَة يتسابقون ، فجرى معهم ، وكان يلقى الصبيّ فى الطريق فيُركبه ناقته ليَسُرّه ، وكان أبرّ والد بولده ، يقول أنس : إنه لا يعلم رجلاً أبرّ بأهله وولده من محمد . وقال أسامة بن زيد : كان رسول الله يأخذنى فيُقعدنى على فخذه ، ويقعد الحسن على فخذه الأخرى ، ثم يضمهما ، ثم يقول : اللهم ارحمْهما فإنى أرحمُهما . وقد حدث أن عجب بعض الأعراب من رسول الله وهو يقبل أولاده وأولاد أصحابه ، فقال الأقرع ابن حابس مرة وقد رآه يقبل الحسين : إن لى عشرة أولاد ما قبّلت أحداً منهم قطْ ، واعترض آخرون بمثل هذا المعنى على الشفقة غير المألوفة ، وكان محمد ينكر عليهم أن يكونوا غِلاظ الأكباد قُساة القلوب . قالت عائشة : جاء أعرابىٌّ إلى النبيّ ، فقال : أتقبلون الصبيان ؟ فما نقبّلهم : فقال النبيّ : أَوَ أَمْلِكُ لك أن نزع الله من قلبك الرحمة ؟

وهذه الرحمة فى نفس محمد كما كانت تبدو بشراً وأنساً ، كانت تفيض دمعاً وأسًى ، وكان جفاة القوم يستعظمون هذه عليه ، فكان يبين لهم أنها رحمة ، وأن لا عيب فيها .

مات لإحدى بناته ولد ، فلما رُفع إليه وكانت نفسه تتقعقع كأنها شَنّ ، (أى قربة جفّ جلدها) فاضت عيناه ، فقال سعدُ بن عُبادة : يا رسول الله ما هذا ؟ قال : هذه رحمةٌ جعلها اللهُ فى قلوب عباده ، وإنما يرحمُ الله من عباده الرحماء وجاءت نوبةُ سعد نفسه ، فاشتكى ، وذهب النبيّ يعوده ، فلما دخل عليه ، فوجده فى غاشيةٍ بين أهله . قال : قد قضى؟ قالوا : لا يا رسول الله ، فبكى النبيّ ، وقال : ألا تسمعون إن الله لا يعذِّب بدمع العين ، ولا حُزن القلب ، ولكن يعذّب بهذا ، وأشار إلى لسانه .

هذه الرحمة بالكبير والصغير لم تكن خاصة بأتباعه المؤمنين ، بل كانت شاملة لأعدائه المشركين والمخالفين من أهل الملل الأخرى . رفع إليه بعد إحدى الوقعات أن صِبْيَةً قتلوا بين الصفوف ، فحزن حزناً شديداً ، فقال بعضهم : ما يَحْزُنُك

يا رسول الله وهم صبية للمشركين ؟ فغضب النبيّ ، وقال ما معناه : إن هؤلاء خير منكم ، إنهم على الفطرة ، فإياكم وقتلَ الأولاد ، إياكم وقتلَ الأولاد . وروى البخارى عن جابر بن عبد الله قال : مرّت بنا جنازة ، فقام لها النبيّ وقمنا ، فقلنا : يا رسول الله ، إنها جنازة يهودىّ ، فقال : أوَ ليست نفساً ؟ ! إذا رأيتم الجنازة فقوموا . ولما مات النجاشى نعاه لأصحابه ، ثم تقدّم ، فصفّ الناس خلفه وصلى عليه .

تلك هى الرحمة التى لا تعرف التخصيص بالدين أو الوطن ، ولا فرق عندها بين الرفق بالإنسان والحيوان .

وسُئِل مرّة أن يلعن أعداءه ، فقال : ما جئت لعَّاناً ، بل رحمة . ولما مات عبدُ الله بن أُبَىّ بن سَلول ، وكان زعيم المنافقين فى المدينة ، وهو الذى رجع بمن تبعه من الطريق يوم أُحد ، فَخَذَلَ النبىّ فى أحرج أوقاته ، وله مواقف مشهورة كان فيها شرًّا على الرّسول والمسلمين . لما مات طلب ابنه من النبىّ قميصه ليكفنه فيه ، تطهيراً له ، فأعطاه قميصه كفناً لزعيم المنافقين . أرأيت أبرّ وأكرم من هذا الصنيع ؟ ثم مشى النبىّ إلى قبره ، فوقف يريد الصلاة عليه ، فوثب إليه عمر بن الخطاب ، وقال : يا رسول الله أتُصَلى على ابن أُبَىّ وقد قال يوم كذا كذا وكذا ؟ ! يعدّ عليه قوله ، فتبسم الرّسول ، وقال : عَنّى يا عمر . . قال عمر : فلما أكثرت عليه قال : إنى خُيِّرْتُ فاخترتُ ، لو أعلم أنى لو زدت على السبعين غفر له لزدت عليها ؛ وانصرف .

وذلك إشارة إلى قوله تعالى فى المنافقين : « اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، إنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ » ، فنى الخيار بين أن يستغفر ، وألا يستغفر ، نزعت به طبيعته الرحيمة إلى الاستغفار لأعدائه ، بل قال لعمر : لو علمت أنى لو زدت فى الاستغفار على السبعين غفر لهم ، لفعلت أكثر من سبعين مرة .

تلك هى الرحمة التى وسعت أعداءه وأصدقاءه والناس جميعاً .

وسمع مرة أعربياً يصلى خلفه ، يقول : اللهم ارحمنى ومحمداً ، ولا ترحم معنا أحداً ، فلما سلّم قال : لقد ضيقت واسعاً .

فمن هذا وغيره مما سقناه من الأمثلة على امتلاء نفسه بالرحمة ، يتضح أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن نِتاجاً للبيئة التى عاش فيها ، وإنما كان الرحمة الشاملة فى وسط الجفوة والعصبية والأَثَرة ، تلك الرحمة التى لا حدّ لها هى التى جعلته يدعو لأعدائه ، وقد سئل الدعاء عليهم فى أحد وهو جريح ، وعمه حمزة مُمَثَّل به ، وأنصاره بين القتل والجرح والتشريد . وهى التى جعلته يدعو لثقيف يوم الطائف وقد امتنعت عليه . وتلك الرحمة هى التى جعلته يفتح لتجارة قريش طريق اليمامة ، وطريق الشام ، وقد سألوه صلة الرحمة ، وشكوا جوع أهليهم ، وهم الذين أخرجوه من داره وحصروه فى المدينة .

فرحمته وبرّه صلى الله عليه وسلم وَسِعَتَا العدوّ والصديق ، والقوىّ والضعيف ، والحرّ والعبد ، والحيوان ، وفاض بها قلبه الكبير ، فكانت فى فمه بشرا ، وفى عينه دمعاً ، وفى يده جوداً .

تلك الرحمة التى وسعت الجميع هى أبرز صفات محمد . وهى التى يتسابق الأبطال إليها ، فيُرَدّون عن هذا المدى ، ويبقى رسول الله المثل الكامل ، والقدوة العظمى . وحقا كان كما قال عن نفسه « إنما أنا رحمة مُهْدَاةٌ » وكما قال القرآن الكريم له : « وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين » .

فصاحة وبلاغة

لم يكن بطل الأبطال وخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم إلا بشراً يوحى إليه ، وما أوتى عن طريق الوحى قد فُصِّلَتْ آياته فى الكتاب ، وفيما عدا ذلك من الأقوال والأعمال ، فإنما هى ثمرة عقل راجح ، ولسان فصيح فى ذاتٍ فذّة ، وله فى غير الوحى من القول والعمل ما يكفيه ليبقى أبد الدهر إمام البلاغة والفصاحة ، وسيد الرجال ، بل الرجل الفذّ فى تاريخ البشرية ، الذى اجتمعت له أمور ثلاثة :

الأوّل : تكوين أمة من قبائل وشعوب متنافرة ، كأنما خلقت لتتباعد وتتطاحن .

والثانى : تأسيس دولة بقيت قروناً مصدر السلطان فى وسط الدنيا ، ولا يزال أثرها أكثر من ألف سنة يهيىء الملك لآل هاشم أينما ظهروا فى المشرق والمغرب .

والثالث إقامة دين يدين به مئات الملايين ، ويخلص له العرب والعجم ، والأبيض والأسود والأصفر .

وتلك الأمور الثلاثة التى اجتمعت له والتى تكفى كلٌّ واحدة منها لتخليد الذكر ، هى بعد الوحى كما قلت نِتاج ذلك اللسان الفصيح ، والعقل المدبّر .

وقد أجمع الناس على أن محمداً الأمّىّ قد أوتى من الأسلوب السهل المعجز ما لم يؤتَ معلّم ولا متعلّم ، ممن دانت لهم العربية ، وملكوا زمامها ، فله جوامع الكلِم ، وبدائع الحكَم فى لفظ ناصع . وقول جَزْل ، ومعان صِحاح خالدة ، فى عبارات مضيئة مشرقة ، لا تكلف فيها .

قال له أصحابه يوماً : ما رأينا الذى هو أفصح منك ! فقال : وما يمنعنى ، وإنما أُنزِلَ القرآن بلسانى : لسانٍ عربىّ مبين . وقد فسّر صلى الله عليه وسلم فصاحته بنشأته فى بنى سَعْد ، ومولده فى قريش ، يريد أنه جمع قوّة عارضة البادية وجزالتها ورَوْنق الحاضرة وزخرف صناعتها وروعتها . غير أن نشأته فى بنى سعد ، ونسبته فى قريش ، لا تفسر لنا ناحية أخرى ، وهى مقدرته على أن يخاطب كلّ قبيلة وشَعب من الشعوب العربية بلَهْجته ، ويبدى فى هذه اللّهَجَات جميعاً من مُطرِب القول

وجامعه ما يَسْبِي قلب سامعه ، سواء أكان السامع من قحطانَ أم عدنان ، من أقصى جنوب الجزيرة أم شمالها ، من حِجازها أم تِهامتها أم نجْدها ، فإنه مُقِرٌّ لمحمد بالإمامة فى البلاغة والفصاحة ، فى أىّ لهجة جرى عليها الحديث .

كان كلامه بيِّناً لا فُضُول فيه ولا تقصير ، يحفظه من جلس إليه . تقول عائشة : ما كان رسول الله يسْرُد كسردكم هذا ولكن كان يتكلم بكلام بَيِّن فَصْل يحفظه من جلس إليه . ورُوِىَ عنها أيضاً : أنه كان يحدث حديثاً لو عدّه العادّ لأحصاه .

ولقد كان بطل الأبطال ، علَم البيان فى قومه الذين اشتهروا بالفصاحة ، والذين كانوا يقيمون للأدب أسواقاً ، ويكتبون بالذهب ، ويعلقون على الكعبة مايستحسنون من القول ، وكان أبو بكر رضى الله عنه نَسّابة مشهوراً فى قريش فى الجاهلية والإسلام وكان فى حيرة من فصاحة محمد وبلاغته ، قال له يوماً : لقد طُفْت فى العرب ، وسمعت فصحاءهم ، فما سمعت أفصح منك ، فمن أدّبك ؟ قال : أدّبنى ربى فأحسن تأديبى . وذلك هو التفسير الصحيح ، لأن محمداً فُطر على صفاء الحِسّ ، ونفاذ البصيرة ، وصحة الحُكْم ، واستقامة الطبع ، مما هو جلىّ فى قوله وعمله .

ويقول الجاحظ ؛ ومكانته فى الأدب ما تعلمون ، يصف كلام الرسول : «ألقى الله على كلامه المحبّة ، وغشّاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وهو مع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته ، لم تسقط له كلمة ، ولا زلت له قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل يَبُذُّ الخطب الطِّوال بالكلام القصير ، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج إلا بالصدق ، ثمَّ لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ، ولا أصدق لفظاً ، ولا أعدل وزناً . . . من كلامه صلى الله عليه وسلم .

وإنى محاول الآن أن أسوق لكم نبذاً من قوله فى مواضع شتى ، ومعان متفرقة ، فيها ترون الفصاحة والبلاغة المحمدية حية منيرة ، لم تُبل القرون جِدّتها ، ولم تذهب شيئاً من طلاوتها . انظروا إلى هذه الكلمات : قال رسول الله : أمرنى ربى بتسع : خشيةِ الله فى السرّ والعلانية ، وكلمة العدل فى الغضب والرضا ، والقصْد

فى الفقر والغنى ، وأن أصِلَ من قطعنى ، وأعطى من حَرَمنى ، وأعفوَ عمن ظلمنى ، وأن يكون صمتى فِكراً ، ونطقى ذكراً . ونظرى عِبْرة .

وقد وجدوا مكتوباً على قائم سيفه صلى الله عليه وسلم : أعْف عمن ظلمك ، وصِلْ من قطعك ، وأحسن إلى من أساء إليك ، وقل الحق ولو على نفسك .

ويقول ابن عباس : كنت رديف رسول الله فقال : يا غلام ، احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ، تعرَّف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، فإن العباد لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشىء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا على ذلك . جَفَّتِ الأقلام ، وطُويت الصحف ! فإن استطعت أن تعمل لله بالرضا فى اليقين ، فافعل ، فإن لم تستطع فإن فى الصبر على ما تكره خيراً كثيراً ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرْب ، وأن مع العسْر يسْراً ، ولن يغلب عُسْر يُسْرين .

وعن أبى ذرّ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتق الله حَيْثُمَا كنت ، وأتْبع السيئةَ الحسنةَ تَمْحُها ، وخالِق الناس بخُلُق حَسَن » .

وعن ابن عمرو بن العاص قال رسول الله : خَصْلتان من كانتا فيه كتبه الله تعالى شاكراً صابراً ، ومن لم تكونا فيه لم يكتبه الله لا شاكراً ولا صابراً : من نظر فى دينه إلى من هو فوقه ، فاقتدى به ، ونظر فى دنياه إلى من هو دونه ، فحمد الله على ما فضَّله به عليه » .

وعن حُذيفة قال رسول الله : « لا يكن أحدكم إمَّعَةً [وهو الذى لا يثبت مع أحد ولا على رأى لضعفه] يقول : أنا مع الناس ، إنْ أحسن الناس أحسنت ، وإن أساءوا أسأت ، ولكن وطِّنوا أنفسكم إنْ أحسن الناس أن تُحسنوا ، وإن أساءوا أن تَجَنَّبُوا إساءتهم » .

وعن معاوية أمير المؤمنين أنه كتب إلى عائشة : أن اكتبى إلىّ كتاباً توصينى فيه ولا تكثرى ، فكتبت : سلام عليك ، أما بعد ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من التمس رضا الله بسُخط الناس كفاه الله تعالى مئونة

الناس ، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وَكَلَهُ الله تعالى إلى النــاس ، والسلام عليك » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « شرّ مافى الرجل ؛ شحٌّ هالع ، وجبنٌ خالع ، اتقوا الظلم ، فإن الظلم ظُلُمات يوم القيامة ، واتقوا الشُّحّ فإن الشحّ أهلك من كان قبلكم ، حَمَلهم على أن سفكوا دماءهم ، واستحلوا محارمهم » ، وقال : « إن الله كره لكم ثلاثاً ؛ قيلَ وَقَالَ ، وإضاعة المـال ، وكثْرة السؤال » ، وقال : « لا تُظهر الشَّماتة بأخيك ، فيعافيَه اللهُ ويبتليَك » ، وقال : « ألا أُنبئكُم بِشراركم ؟ الذى يأكل وحده ، ويَجْلِد عبده ، ويمنع رِفْده » .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله : « يوشك إن طالت بك مدّة أن ترى قوماً فى أيديهم مثل أذناب البَقَر ، يَغْدون فى غضب الله ، ويروحون فى سخط الله » . وقال : « صِنْفان من أهل النار ولم أرهما : قوم معهم سِياط كأذناب البقر ، يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات مائلات مُميلات ، رءوسهنّ كأَسْنِمَةِ البُخْت لايدخلن الجنة ، ولا يرَحْن رِيحَها » . وقال : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ » .

ثم انظروا إلى هذه الكلمات الموجزة ، وتدبروا مافيها من حكم بالغة : لاخير فى صحبة من لا يرى لك ما ترى له . رحم الله عبداً قال خيراً فغنِم ، أو سكت فسلِم . الناس بزمانهم أشبه . العِدَةُ عطيةٌ . العاقل ألوف مألوف . لا تزال أمتى بخير مالم تر الأمانة مغنما ، والصدقة مغرماً . اتقوا المهلكات : شحٌّ مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه .

كان صلى الله عليه وسلم خطيباً لايبارَى ، يقصد إلى الحقيقة ، فيضعها بين سمع الناس وبصرهم ، لا يحاول أن يستبى القلوب بزخرف القول ، يكره التفاصح والتنطع ، بيّن العبارة ، واضح المعنى ، وله خطب طوال لا حشو فيها ولا تقصير . وقصارى القول أن كلامه هو الكلام الموجز الشامل المعجز .

يقول الْخُدْرِىُّ صلى بنا النبىُّ يوماً صلاة العصر ، ثم قام خطيباً ، فلم يدع شيئاً يكون إلى قيام الساعة إلا أخبرنا به ، حفظه من حفظه ، ونسيه من نسيه ، وكان

فيما قال : إنّ الدنيا خَضِرَة حلوة ، وإن الله مستخلفكم فيها ، فناظرٌ كيف تعملون ، ألا فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء ، ألا لا يمنعن رجلاً هيبةُ الناس أن يقول بحقّ إذا علمه ، ألا إنهُ ينصب لكلّ غادر لواء يوم القيامة بقدر غدرته ، ولا غَدْرَةَ أعْظَم من غَدْرَةِ إمَامٍ عَاقٍ . ألا وإن الغضب جمرة فى قلب ابن آدم ، أما رأيتم حمرة عينيه ، وانتفاخ أوداجه ، فمن أحسّ بشىء من ذلك فَلْيَلْصَقْ بالأرض .

ثم انظروا إلى هذه الخطبة الجامعة لكثير من أصول الشرائع ، فى صفحة موجزة ، يلقيها على مائة ألف ، فى موقف عَرَفة ، فى حِجَّة الوداع ، ففيها ألغى مآثِرَ الجاهلية ، وقرّر مبادئ المساواة ، وحرم الثأر ، وقضى بذلك على أقدم عُرْف للعرب ، وأمسّ شىء بقلوبهم ، وقضى كذلك على الرّبا ، ورفع درجة المرأة ، وحرم الفتن والنهب والغزو ، وكان مفخرة وعزّة ، وذكر الأشهر الحُرُم ، فسوّى بين أوقات السنة فيما هو حلال أو حرام ، وقد كان الروم يستغلّون تحريم العرب للقتال فى شهور معينة ، فيعتدون على حدودهم ، ونصح الناس فى أمور شتى ، وحذّرهم ما يحقِرون من أعمالهم ، ويستهينون به من الآثام .

قال صلى الله عليه وسلم : أيها الناس اسمعوا قولى ، فإنى لاأدرى لعلّى لاألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً . أيها الناس : إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهراً ، منها أربعة حُرُم ، ثلاثة متواليات : ذو القعدة ، وذو الحِجة ، والمحرّم ، ورجَبُ مُضَرَ الذى بين جُمادَى وشَعْبان . أىُّ شهر هذا ؟ أليس ذا الحجة ؟ قالوا : بلى ، قال : فأىّ بلد هذا ؟ أليس البلدة ؟ قالوا : بلى ، قال : فأىّ يوم هذا ؟ قال : أليس يوم النحر ؟ قالوا : بلى ، قال : فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا ، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، ألا فلا ترجعوا بعدى ضُلاَّلا يضرب بعضكم رقاب بعض ، ألا ليبلغ الشاهد الغائب فلعلّ بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه ، ألا هل بلّغت ؟ ألا هل بلّغت ؟ . فمن كانت عنده أمانة فليؤدّها إلى من ائتمنه عليها ، وإن كلّ ربا موضوع [أى مهدَر] ، ولكن لكم رءوس أموالكم لا تظلِمون ولا تُظلَمون ، قضى الله أنه لاربا ، وإن ربا عباس ابن عبد المطلب [عمّ النبىّ] موضوع كله ، وإن كلّ دم كان فى الجاهلية موضوع ،

وإن أوّل دمائكم أضع دمُ ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب [أى ابن عمّ النبىّ] .
أما بعد أيها الناس ، فإن الشيطان قد يَئِسَ أن يُعْبَدَ بأرضكم هذه أبداً ، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك ، فقد رضى بما تحقرون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم .

أيها الناس : « إنما النسىء زيادة فى الكفر يُضَلُّ به الذين كفروا ، يحلونه عاماً ، ويحرّمونه عاماً ، ليواطئوا عدّة ماحرم الله فَيُحِلوا ما حرم الله » .

أما بعد : أيها الناس ، فإن لكم على نسائكم حقًّا ، ولهن عليكم حقًّا ، لكم عليهنّ ألا يُوطِئن فُرُشكم أحداً غيركم تكرهونه ، وعليهنّ ألا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن ، فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهنّ فى المضاجع ، وأن تضربوهنّ ضرباً غير مُبَرِّح ، فإن انتهين فلهنّ رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف .

أيها الناس : استوصوا بالنساء خيراً ، فإنهنّ عندكم عَوان[1] لا يملكن لأنفسهنّ شيئاً ، فاعقلوا — أيها الناس — قولى ، فإنى قد بلغت ، وقد تركت فيكم ماإن اعتصمتم به فلن تضلوا : كتاب الله ، وسنة رسوله .
أيها الناس : اسمعوا قولى واعقلوه تَعَلَّمُنَّ أنّ كل مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين إخوة ، فلا يحلّ لامرئ مال أخيه إلا ماأعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمُن أنفسكم ، اللهم هل بلّغت ؟ .

فأجاب الناس من كل صوب : نعم . فقال : اللهم اشهد ، ونزل عن ناقته .

هذه الخطبة جمعت أصولا قد تبدو الآن معترفاً بها ، مجمعاً عليها ، ولكن الذين درسوا حالة المجتمع العربى وقت إلقائها ، بل حالة المجتمع الإنسانى ؛ يعرفون أنها كانت أساساً جديداً لأكبر انقلاب اجتماعى منذ ظهوره صلى الله عليه وسلم ، ويلحظون إحاطتها على قصرها بالداء والدواء ، وإن فيها أسس الحضارة التى جعلت من العرب الضُّلّالِ أمة تسوس المشرق والمغرب قروناً كثيرة .

وهاهى ذى الأيام تمرُ فتبْلِى كلّ جديد ، وفصاحة محمد وبلاغته لا تزال نَضرة عذبة يبتهج بها المتطلع إلى الأدب والعلم ، ويجد فيها الأديب ريًّا وشفاء .

---

(١) جمع عانية ، أى أسيرات ، شبههن بالأسيرات لضعفهن .

حسن سياسته وحكمته فى تصريف الأمور

صفة عظمى من صفات الرسول صلى الله عليه وسلم ، هى مثل لرجال الدولة والسياسة والقادة فى جميع ميادين الإصلاح . لعلهم كذلك واجدون فيها ما يمكنهم من النجاح ، فإن محمداً بما أوتى من الأخلاق ، وما وُهب له من حسن السياسة ، وتصريف الأمور ، ووضعها فى نصابها ، قد أوتى النجاح الذى لم يُؤته أحدٌ قبله ولا بعده .

هذه الناحية من حياته يبدو فيها محمد مثلا عالياً لرجل الدولة ، وسترون بها ميزة على من سبقه من الأنبياء والرسل والأبطال ، ولقد كانت أكثر وضوحاً فى المدينة حيث استلزمت الأحوال أن يكون نبى الأمة وزعيمَها وقائدها ، وحيث أخذ التشريع الإسلامى يتناول الحياة السياسية والاجتماعية بتوسع وتفصيل أكثر مما كان فى مكة ، حين كانت الدعوة لا تزال فى بدايتها ، متجهة بكلّ قوتها إلى تعريف الناس بالله ، وإنذارهم حسابه وعقابه ، ذلك الفرق بين مظهرى الدعوة فى بيئتين مختلفتين ، جعل بعض كتاب الملل الأخرى يحاولون أن يصوّروا محمداً فى شخصيتين : مكىّ ومدنىّ يقولون هذا نبى ، وهذا رجل دولة وصاحب سلطان .

لو أن الذين يظنون هذا الظن كانوا بعيدى النظر لرأوا محمدا الواعظ فى مكة ، هو محمدا الناسك فى المدينة ، الذى تتورّم قدماه من كثرة الوقوف بين يدى الله ، والذى يموت وهو رأس الدولة ، ودرعه مرهونة عند يهودى .

بل لرأوا محمداً الذى يشيعه العبيد والصِّبْية والسُّوقة من الطائف بالسخرية والحجارة ويقيمونه إذا جلس من الإعياء فيدعو الله لهم بالهداية هو محمدا الذى يناول مفتاح الكعبة لعثمان بن طلحة يوم الفتح ويقول : اليوم يوم بِرٍّ ووفاء .

لو أن هؤلاء الذين جعلوه نبيًّا فى مكة ، ورجل دولة فى المدينة لاحظوا كيف وضعت نواة الدولة فى أيام المِحنة بمكة ، لما حسبوها من غرس يثرب ، بل علموا أنها نتيجة محتومة للصراع العنيف ، الذى دام ثلاث عشرة سنة ، ونِتاجاً

للدعوة من وقت أن قال الله عزّ وجلّ : « فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ » .

وما قامت الدولة فى يثرب إلا على أيدى تلاميذ النبى فى مكة ، ممن هاجروا فى سبيل الله إلى الحبشة أوّلا وثانياً ، ومن هاجروا إلى يثرب بعد ذلك ، وعلى سواعد الأنصار من أصحاب البَيْعة الأولى والثانية عند العقبة فى مكة .

أولئك هم نواة الأمة النموذجية التى غرسها الرسول فى المدينة ، وشاد عليها الدولة المحمدية ، ثم ظهرت (الإمبراطورية) الإسلامية على صورتها فيما بعد .

كان محمد فى مكة والمدينة من ساعة أن استيقظ على صوت الرفيق الأعلى فى حِراء ، إلى أن استجابت روحه لذلك الرفيق فى بيت عائشة ، واضح الهدَف ، متعدد الوسيلة ، راجح العقل ، حسن السياسة .

قَبِل فى مكة أن ينتفع بعُرْفها ، فعاش فى جوار عبد المطلب وهو مشرك ، وطلب فى عودته من الطائف جوار المطعم بن عدى فدخل مكة فى حمايته وهو مشرك ، ولذلك قبل الاستفادَة من نظم أهل الأوثان ، ليقهر الأوثان فى مكة ؛ وقبل فى المدينة أن ينظم أهلها ويعاهدهم ، ويستعين بهم ويقودهم إلى النصر ، ليحمى نفسه وصحبه ، ويقضى على الأوثان .

موهبة واحدة ، ووسيلة واحدة ، لغاية واحدة ، فى أحوال شتى ، أخطأ هؤلاء الكتاب تصويرها .

وإن كان يبدو فى المدينة كثير التشريع والتنظيم والتصريف لشئون الحياة ، فليس ذلك برهاناً على تغيره ، بل على تفوّقه وأنه فيّاض الموارد ، خصب العقل .

فذات الرسول التى وقفت فى وجه المشركين ثلاثة عشر عاماً بمكة لا تعجز ، ولا تهن ، ولا تيأس ، هى ذاته التى فاضت فى المدينة على شئون الدنيا ، فدلت على ما فيها من الحيوية والقُوى التى جعلتها أهلا للتغلب على كلّ معضلة فى وقتها ومناسباتها .

تلك القُوى والصفات التى لم تجتمع لأحد قبله ولا بعده ، جعلته من أية ناحية نظرت إليه مثلا كاملا ، وأسوة حسنة ، بل من مجموع هذه القوى والصفات يبرز للناس رسول الله سواء أكان فى أيام الدعوة المجرّدة عن السلطة ، أم فى أيام الدعوة

المصحوبة بالرياسة الزمنية فى المدينة ، ذاتاً موفقة ناجحة ، انصرفت إلى الله بكليتها فجملته أمامها ، ووضعت ما عداه وراءها ! هو فى كلتا القريتين الناسك العابد ، الباكى بين يدى خالقه ، وهو فيهما الزاهد ، يمرض عليه أصحابه أن يُوطِئوا له فراشاً ، فيقول : مالى وللدنيا ! ما أنا والدنيا إلا كراكب استظلّ تحت شجرة ثم راح وتركها .. لم يغره السلطان بشىء من المظاهر ، ولا خرج به عن التواضع والتياسر .

فأىّ تنافر يجد النقّاد فى حياة الرسول ، ليجعلوا من شخصه شخصين ، وهو يكافح فى مكة ولا سلطان له ، ويجاهد فى المدينة على رأس الدولة التى خلقها ؟ لقد كان همه فيهما جميعاً إلى اللحظة الأخيرة ، نشر دينه ، وغايته بسط سيادة الإسلام على الشرك .

وأىّ تناقض يجد نقاده بين حياته فى مكة ، وحياته فى المدينة ، وهو فى الأولى يتوسّل بالصبر على الأذى والسخرية ويتقى بعُرف الجاهلية الموت مع أنه لا يقرّ ذلك العرف ، ويسعى لهدمه ، ويرسل المؤمنين مهاجرين إلى الحبشة ، ويجادل عن دينه ، ويدعو إليه ، ويخرج من كل كارثه برأى صائب ، ويعدّ لكلّ حالة تدبيراً محكماً ، وفى الثانية يتخذ من نصرة أهلها تكأة ، فيعاهد اليهود والمشركين ، ويتقى الموت بدرع الدولة التى نظمها ، وينجو من (الأحزاب) بحسن الرأى ، ويغلب المصائب بموفق التدبير ؟

ثلاث عشرة سنة قضاها فى فم الأسد ، دون أن يستطيع الأسد أن يطبق عليه أنيابه ، وعشر سنين فى المدينة يحاول فيها الأسد أن يمسك بالفريسة ، وفى هذه وتلك يبدى رسول الله من حسن الرأى ، وبارع السياسة والصبر ، وسعة الصدر والتدبير ما يوقع الأسد فى شبكة الفريسة ، فإذا ما انتهى إلى النصر الحاسم المعجز ، وبُهت الذين كفروا ، قالوا : لو أنه لم يُقم دولة ولم يَقُد جيشاً ، لكان النبى الخالص من الشوائب ..!

لو أن الذين يأخذون على محمد أنه لم يقتصر على حياة الوعظ ، وظنوا أن الأكمل له أن يقف عند الجهر بالدعوة حتى يقتل ، فكّروا فى مصير الدعوة نفسها ، لشاركونا فى الإعجاب به مرشداً وواعظاً ، ومنظماً وفاتحاً .

فبين جُفاة الأعراب فى بيئة الأوثان والعزّة بالعصبية ، والتفاخر بإباحة الدماء

والأموال والأعراض ، لم يكن لدعوة محمد بعد قتله مصير إلا الانحدار والسخرية به وبها ، وقد علمت ذلك قريش ، وأعدُّوا له عُدَّته وهيئوا لبنى هاشم من بعده الموقف الذى ليس لهم فيه إلاّ الدِّية صاغرين .

لو أن هؤلاء النقاد كانوا أكثر بصيرة بحياة العرب ؛ لأدركوا مع السهولة هذه الحال ، ولو سلك الرسول ذلك السبيل ، وبقى فى موقفه ساكناً إلى آخر لحظة ، لما بقى من دينه إلا بعض مواعظ تروى ضمن أساطير التاريخ ، أو لبقيت الدعوة على أحسن الفروض موكولة إلى المصادفات كما بقى غيرها ، حتى يتاح لها رجل من الجبابرة ، أو من المصلحين ، يأخذها ويضع سيفه بجانبها ، حتى يظهرها على غيرها ، وهى صورة مُحَرَّفة لما أراد الله وأراد محمد . ومع ذلك ماذا يريد الناقدون من رجل كامل العقل والرجولة أن يعمل ، وقد همّ القوم بقتله ، ففرّ منهم ويهمون بتعقبه للقضاء عليه فى ملجئه ؟ وكلّ ما بينه وبينهم من خلاف قائم على نفس العقيدة التى ملكت قلب محمد ، والتى احتمل فى سبيلها صنوف الأذى والعذاب ، والتى هى عنده أساس الخلود ، ووسيلة الحياة الأخرى ، أكان ينتظرهم فى المدينة حتى يأتوا إليها فيقتلوه ؟ لو كان مطلبه متعلقاً بشىء فى النفس من متاع الدنيا ؛ لأمكن أن نلحظ على ما بيننا وبين أولئك الكتاب من خلاف وجهة نظرهم ، ولكن أمر محمد لم يكن شيئاً من هذا فى قليل أو كثير .

لقد كان محمد أبعد الناس نظراً وأرجحهم عقلاً ، فمنذ أن وصل إلى المدينة أخذ فى إعداد العُدّة لحماية الدعوة من قوم لا يحترمون غير القوّة ، ولم يفلح فيهم النصح ثلاثة عشر عاماً .

نظر بثاقب فكره فى وسائل الدفاع عن النفس والصحب ، فأحسن ابتكارها وأحسن استعمالها وانتهى إلى النصر الذى تقول فى صاحبه دائرة المعارف البريطانية : إنه النجاح الذى لم ينل مثله مصلح دينى فى زمن من الأزمان !.

ذلك النجاح المقطوع النظير لم يبدِّل من حالة محمد فى نُسُكه وتعبده ، وزهده وتواضعه وتياسره ، وبره ورحمته ، ومظهره ومخبره ، ومطلبه وغايته ، بل بقى والدعوة غالبة فى المدينة كما كان والدعوة مغلوبة فى مكة .

فعظمته عندنا هى فى مُلكه ، وفى نبوّته ، وفى ملكه برهان آخر على نبوّته ؛ فإنه يقف وحده فى تاريخ الفاتحين ناسكا فقيراً زاهداً أوتى كل السلطان ، ثم يموت لا يوصى لأحد بعده ، ويحرم ذريته وأهله الأوفياء ، لا من الملك الذى شاده وحده ، بل مما يرث الناس عادة ، ويقول : نحن معاشِرَ الأنبياء لا نورَث ، ما تركناه صدقة .

يذكر فى صلاته ، وهو بكامل العافية شيئاً من تِبْر فى بيته ، فيسرع فيها ، ويدخل البيت ، فيخرجه ويوزعه ، خاشياً أن يدركه الموت وله شىء من الدنيا .

ويدخل مكة فاتحاً ، فيضع رأسه ويطأطئه على ناقته وهو يسير ، وأعداؤه على الهوان والعجز ، ويخشى أن تحدثه نفسه من العُجْب أو الغرور .

والحق الذى لا مراء فيه أن محمداً فى حياته بالمدينة ، وبقيادته للأمة وتوليه الحكم ، أدى الرسالة التى اختصه الله بها أحسن أداء ، فأرانا بالفعل لا بالقول ماذا يجب أن يكون عليه الحاكم فى كل المناسبات والأحوال ، والناس محتاجون للحاكم وللدولة ما دامت الحضارة بل ما دامت الدنيا .

فلو أنه قضى ولم تبرز لنا هذه الناحية ، لما كان المثل الكامل الذى سعد الناس به ، ولو كانت المواعظ وحدها كفيلة بالإصلاح ، لوجد الناس فى الكتب ما يغنى عن المصلحين .

ولكن هى الأمثال تُضْرَب ، والأقوال تطبَّق ، والعين ترى ، والأذن تسمع ، والحسّ يشارك الفكر .

هو ذلك كله الذى يطبع الناس بالمثل الصالح ، ويحرّك البشر إلى الجهود النبيلة المثمرة ، ومحمد لهذا كما يقول : [بوزورث اسميث] أكبر المصلحين على الإطلاق .

* * *

فى هذا الحديث رد موجز على بعض كُتَّاب المِلل الأخرى ، الذين أرادوا أن يصوّروا محمداً فى شخصيتين : مكيّة ومدنيّة ، وبيانٌ لخطأ هذا التصوير . والآن

أنتقل إلى قصدى من الحديث ، وهو بيان ناحية من نواحى الرسول فيها درس كامل ، وفيها ضياء يكشف لنا عن الأخلاق السامية ، التى كانت موضع الفصول السابقة ، بل فيها صور لا تقرّب من وصف محمد للناس إلا بمحاولة إخراجها .

جاء صلى الله عليه وسلم إلى يثرب ورفيقه أبو بكر بعد سَفْرة شاقة ، وخوف زُلزلت له نفس صاحبه ، جاءها لاجئاً يطلب لنفسه وصحبه الأمن فى جوار أهلها ، فما استقرت به النَّوى حتى لحظ بثاقب بصره حاجتها إلى السلام ، وإلى التنظيم الداخلى ، وحاجتها إلى الأمن الخارجى .

جاء يثرب [التى سُمِّيَتْ مدينة النبى فيما بعد] والأوس[1] والْخَزْرَجُ[2] فيها قريباً عهدٍ بوقْعةِ بُعاث[3] ، والعداوة القديمة بينهما تثير الأحداث الجديدة ، واليهود يُذْكون نار الفتنة ، ويخشون سوء المُنْقَلَب إذا مااتحدت الأوس والخزرج.

جاء إلى المدينة وأصحابه الذين هاجروا إليها ليس لهم فيها حول ولا قوّة إلاحصول اللاجئ المستظل بجوار قوم لا يحبون أهله وعشيرته ، فاستُقْبل من المسلمين بحماسة عظيمة ، ومن اليهود والمشركين ببشر لا بأس به . هؤلاء يأملون أن يصلح الله به ذات بينهم ، وأولئك يطمعون فى استخدام العربى الخارج على الأوثان ، التودّد لأهل الكتاب ، للاعتزاز على العرب من ناحية ، ومقاومة النّصرانية فى الشمال من ناحية أخرى . فكان مركزه لذلك على جانب عظيم من الدّقّة ، عرضة لانتكاس اليهود والمشركين ، كما هو عرضة لبغى مكّة ، وشرّها المستطير .

فلننظر كيف تناول الموقف بحكمته ؟ وبرهن على أنه أهل لكلّ جليل من الأمر ، ليس بما اختصه الله به من الوحى فقط ، بل بما أوتيه رجلا فى ذروة الإنسانية ، من حسن التدبير وكمال العقل .

شرع فى الحال فى بناء المسجد ، وما هذا المسجد ؟ فيه كانت الآساس التى وضعها لصلاح الدّين والدنيا ، وأصبح معبداً و [برلماناً] ومقرًّا للسلطة التنفيذية ،

(١، ٢) أنصار النبى من أهل المدينة هم قبيلتا الأوس والخزرج ابنا قيلة ، وهى أمهما نسبا إليها وهما ابنا حارثة بن ثعلبة من اليمن .

(٣) يوم بعاث بضم الباء : يوم معروف كان فيه حرب بين الأوس والخزرج فى الجاهلية ، وبعاث اسم حصن للاوس .

ومركزاً للقيادة العليا ، منه تصدر الدعوةُ إلى الله ، والشرائعُ لخلقه ، وجميع الخطط والتدابير الإدارية والسياسية والعسكرية ، وفيه تستقبل الوفود ، ويُلَقَّن العلم .

كان المسجد على سذاجة بنائه وأثاثه ، وعلى قلة الأوضاع فيه ، يتناسب كل التناسب مع تياسر محمد وأصحابه وانصرافهم للجوهرى منْ الأمر ويذكر الناس فى كلّ حين بهذه الحقيقة ، وهى أن الانقلابات العظيمة ، وأن النجاح فيها أثر لهذه السهولة التى تعنى بالروح والخلق ، لا بالافتنان فى الأوضاع ، والإسراف فى المظاهر .

ومن هذا المسجد الصغير نمت تدريجيًّا الإدارة الإسلامية إلى أن شملت الجزيرة كلها ، ودانت الروم والفرس لها ، وفى هذا المسجد اتخذت تدابير قد تكون مما استلزمته أسباب مؤقتة ، وأحوال طارئة ، ولكنها بما انطوت عليه من الحكمة السامية ، وما صدرت عنه من الإدراك ، كانت بذوراً لأوسع الإدارات الإمبراطورية ، وقواعد لأكبر إصلاح بشرىّ .

من هذه التدابير ظهرت يثرب وطناً لأهلها ، لا مسكناً لأقوام متنازعين فيها ، وطناً آمناً للمسلمين والمشركين واليهود ، وللنازحين إليها من أيّة قبيلة كانوا ، ولأىّ عنصر انتسبوا ، عرباً أو عجماً .

فظهر لأوّل مرّة معنى الوطن ، تتساوى الناس فيه تحت نظام يعطى حقوقاً ويلزم تكاليف ، من غير نظر إلى الأحساب والأنساب والعصبيات والعقائد .

انظروا إليه صلى الله عليه وسلم يضع دستور الوطن الجديد فى صحيفة بين أهل الأديان والأجناس ، تجعلهم جميعاً وطنيين مكلفين الدفاع عن الوطن أمام أىّ اعتداء عليه ، متكافلين فى الحرب والسلم ، لا ينصرون غيرهم ولا يمالئونه على أهل الوطن ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم ، وتكفل حريّة العقيدة لأهل الوطن ، وحرمة أموالهم ودمائهم وأعراضهم .

تبتدئ الصحيفة هكذا : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد النبى صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ، ومن تبعهم ، ولحق بهم ، وجاهد معهم ، إنهم أمة واحدة من دون الناس .

ثم نقرر أن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ، ولا متناصَر

عليهم ، وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم ، ثم تقرر لبقية اليهود المعاهدين ما ليهود بنى عوف ، ثم تذكر الصحيفة أن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم ، إلى أن تقول : وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ، وإن الجار كالنفس غير مُضَارٍّ ولا آثم ، وأنه لا تُجار حرمة إلا بإذن أهلها ، وأن ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده ، فإن مرده إلى الله عزَّ وجل وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

بهذه الصحيفة انقادت إلى النبى سلطة يثرب الزمنية دون قصد ، فقد اقتضت العهود أن تنص على حَـكَمٍ فى حالة الخلاف ، ولم يكن إلا هو ليحكم ، ومنذ تلك الساعة وضع الحجر الأساسى لدولة الإسلام .

فقضى رسول الله على الفوضى ، والإباحة للقوّة ، وجعل لأوّل مرّة فى البلاد العربية حق الأمة فوق حق القبيلة ، وجعل مرجع إقامة الحدود إلى الله ، أى إلى شريعته ، وإلى رسوله منفذ هذه الشريعة ، وكانت إلى ذلك الحين تتولاها القوة الغاشمة وحدها ، قوة العصبية لا تفرق بين المذنب والبرىء ، وبذلك غرَس لاجىء إلى يثرب بذرة الحضارة فى أشد الأقوام نزوعاً إلى الاختلال والهمجية ، ووضع نواة الإمبراطورية التى أزهرت قروناً طويلة ، ولا تزال فخر المشرق ، وحديث المغرب .

أدرك محمد صلى الله عليه وسلم بما أوتى من العقل الراجح ، أن النظام الذى يريده ليثرب أولا ، وللعالم أخيراً لا تـكفله صحف الدساتير وحدها فى قوم غلاظ ، سراع إلى الفتنة ، شديدى التمسك بالعصبية ، بل لا بد من القوة لحماية الدعوة ، وصون النظام الذى وضعت قواعده فى هذه الصحيفة ، وما تبعها من عهود صارت فى مجموعها دستور الوطن الجديد ، هذه القوة لا تـكون إلا فى سواعد المؤمنين الذين هجروا وطنهم إلى الحبشة وإلى يثرب ، فراراً من النظام العتيق ، وخروجاً على دعوة الجاهلية والعصبية ، فهم حُماة عهد الحرية والنظام ، الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، من هؤلاء المهاجرين كان الفوج الأول من الجيش المحمدى ، ومن

الأنصار كان الفوج الثانى ، فهم المتطوعون الذين صادفت الدعوة من نفوسهم موقع القبول والبشر ، فلم يكن هناك سند للحرية والنظام الجديد غير المهاجرين والأنصار من بطون قريش وقبائل أخرى بينها من المنافسة ما بينها . والأنصار هم خصوم قريش ومنافسوها ، وقد كادت كذلك العداوة والبغضاء التى بين أهل المدينة تقضى على وجود الأوس فيها قُبَيْل وصوله صلى الله عليه وسلم .

فتأليف هذا الجيش من المهاجرين والأنصار ، ومزجه ، وتدريبه ، وتربيته حتى يكون وحدة متماسكة ، غايتها نصر الدعوة ، ووسيلتها الطاعة والنظام ، وعدتها الإيمان ، هو العمل العظيم الذى برزت فيه صفة رسول الله العسكرية . ومن أبطال هذا النوع من الفاتحين السابقين واللاحقين فى المدينة ، وبعد مضىّ ستة أشهر فقط من وصوله إليها ، أخذ يعد هذا الجيش ويهيئه ، حتى اصطدم به بعد سنتين فى بدر مع قوة تفوقه فى العُدَّة ، وفى شهرة صناديدها ، كما تزيد على ثلاثة أمثاله فى العَدد ، فرأى الناس معجزة النظام والتدرب . ومنذ هزيمة بدر لم تقم للوثنية قائمة ، ولا وقف الجيش المحمدى حتى بلغ قلب فرنسا ، وقلب الهند .

رأى هذا الخليطَ من أتباعه فى يثرب عُرْضة لدعوة العصبية ، فدعاه إلى التآخى وجعل للرجل من قريش أخاً من الأوس ، وللآخر أخاً من الخزرج ، وما زال يؤاخى بين هذا وذاك ، ويعقد بينهم أواصر أخوة فى الله ، حتى شمل القبائل والبطون ، ووصل بهذا التآخى فى العقيدة إلى مقام أسمى من أخوة الدم ، فقدمه عليها ، وجعل الميراث للأخ فى العقيدة ، دون الأبناء والآباء من غيرها .

هذه المؤاخاة التى تجدون حديثها فى كتب السير مطوّلاً ، وفيها تفصيل الأسماء والأنساب ، هى أساس الأمة الإسلامية ، وأساس النصر فى كلّ مواقع الإسلام فيما بعد .

وقف أبو سفيان ينظر إلى جيش محمد يوم الفتح ، فكلما مرّ فوج قال : مَنْ هؤلاء ؟ فيقال : سُليم أو مُزَينة أو غيرها ، وهوَ لا يَعْبَأ بهم ، حتى لاحت الكتيبة الخضراء مِنْ هؤلاء الإخوان ، فقال للعباس : ومن هؤلاء ؟ قال المهاجرون والأنصار ، فقال أبو سفيان : ما لأحد بهؤلاء قِبَل ولا طاقة والله يا أبا الفضل ! لقد أصبح ملك ابن أخيكَ الغداةَ عظيما .

هذه الأخوة فى الله التى قضت على عرف القبيلة ، وعصبيّة الجاهلية ، والتى تعهدها رسول الله بعنايته ، أخرجت الأمة العربية من الاختلال والتشتت إلى حياة الوحدة والنظام ، وهيأت [للإمبراطورية] الإسلامية مكانتها التاريخية .

كان محمد صلى الله عليه وسلم رجل جدّ ، بصيراً بالعواقب ، شديد اليقظة ، دائم التفكير ، علم أنه لا يكفى لأمن يثرب أن يضع لها دستوراً يكفل الحرّية والتعاون بين مسلميها ويهودها ومشركيها . ولا يكفى أن يؤاخى بين أنصاره المؤمنين لكى يكفل النظام الداخلى فى المدينة ، ما دامت المدينة كلها كالجزيرة فى المحيط ، لا تصل إلى ناحية من النواحى إلا بإذن المشركين وتسامحهم ، وهى فى هذا المحيط الذى تتولى زعامته الدينية قريش أضيع منها قبل هجرته إليها ، إذا لم تعترف قريش والعرب لها بالوجود وتوادعها . ولننظر كيف أخذ يعالج هذا الخطر ، ويجعل من المدينة الضائعة المحصورة قاعدة الجزيرة العربية ، ثم عاصمة الإمبراطورية فى بضع سنين .

كان فى المدينة على مفترق طريقين : طريق يريده له بعض كتّاب الملل الأخرى ، وبعض قصار النظر ممن يحلو لهم الكلام ، ويعجزون كلّ العجز إذا اعترضتهم عقبات الحياة ، وسخافات البشر ، وسنن الوجود ، وطريق آخر هو الذى سلكه لأن الله أرشده وأعدّه ليكون المثل الكامل فى القول والفعل . أما الأول فهو الطريق السلبى ، وأما الثانى فهو الطريق العامل ؛ فى الأول كان عليه أن يكتفى بالإقامة فى المدينة كما كان فى مكة واعظاً مرشداً ، معوّلا على حماية من عاهدوه من أهل المدينة ، منتظراً ما تفعل قريش ومن حول يثرب من الأعراب فإن أحسنوا وتركوه فى عزلته كان لهم الفضل ، وإن جاءوا فقضوا عليه ، كان له أجر الشهادة ، ولهم فخر النصر ... وأما الطريق العامل ، فهو أن يدرك هذا الخطر ، ويعمل على منعه ، ويقوم على دعوته ، مناضلاً مجادلاً مجاهداً حتى يفوز بغايته ، ويضمن للذين آووا ونصروا والذين هاجروا معه ، السلامة والعزة .

لم يكن محمد من الوعّاظ الذين يمرّون على الحياة يلقون إلى الدنيا كلمة الخير ، ثم لا ينظرون : أذهبت مع الرّيح أم بقيت ؟ فهو بمقتضى رسالته ومروءته

ورجولته الـكاملة شخص آخر ، هو الجدّ فى صورة رجل ، والإيمان العامل الراسخ ينسف الباطل نسفاً .

ما جاء المدينة ليبنى صومعة ، ويسأل المشركين واليهود حمايتها ، فلم يكن بمقتضى طبعه ومناسباته يستطيع أن يسلك السبيل السلبي الـكلامى دون أن يصل به إلى الإخفاق المحقق .

نصر بعض أهل المدينة محمداً إيماناً به ، ووافقهم المشركون طمعاً فى الاعتزاز على مكة ، وتحويل تجارتها إلى سوق يثرب ، وكان فى المدينة اليهود يعتقدون أنهم شعب الله المختار ، وأنه لا يختص بالنبوّة أحداً غيرهم ، ويطمعون فى أن يعتزّوا بمحمد على العرب ويؤيدوا به دعوتهم .

وفى المدينة المهاجرون أصيبوا بحُمَّى يثرب من أول حلولهم فيها ، وتشاءموا من عُقْم نسائهم ، حتى إن امرأة الزبير لما ولدت كان نفاسها عيداً ، وصحبهم الفقر بعد أن تركوا أموالهم فى مكة ، ذلك هو الأمر الذى لامخرج منه إلا بالجدّ والعمل ، ورسول الله قد برهن فيه على فيض من العقل وحسن السياسة ، لم يؤت مثله مصلح ولا فاتح فى زمن من الأزمان .

* * *

فيما سبق وصف موجز لحالة المدينة ، وبيان باختصار لآمال اليهود ، وأطماع المشركين ، وحركة المسلمين ، وأنه لم يكن أمام الرسول مخرج إلا الجد والعمل الحاسم . والآن ننظر فى حالة مكة والمشركين حول المدينة ، ليتبين فضل حسن السياسة والحزم فى التغلب على مايشبه المستحيل .

يُظن أن مكة قرية بائسة ، محرومة ، فى واد غير ذى زرع ، وقليل من يعلمون أنها فى وقت ظهور الدعوة الإسلامية كانت من أغنى القرى ، بل كانت سوقاً من أربع أسواق التجارة فى العالم القديم ، وكانت قريش فيها من أعظم التجار همة ، وأخبرهم بحال من حولهم من الأمم . ولعل الموقع نفسه ، والحرمان الطبيعى ، هو الذى حفزهممهم ، وضاعف نشاطهم ، فساحوا فى الأرض ، وابتغوا فضل التجارة ، ألم نسمع

بمغامرات فينيقية فى التاريخ القديم ، وبريطانيا فى التاريخ الحديث ؟ أليس سر نجاح هذه الأمم هو فى عجز أوطانها عن تقديم حاجات الحياة ، مما دفعهم إلى المغامرة وطلب الرزق فى أسواق العالم ، فصاروا أغنى أهل الأرض ، فى أفقر بقاع الأرض ؟ كذلك كانت مكة وقت ظهور الدعوة المحمدية : كان أهلها فى بسطة من الرزق ، ومتاع بكل ما لذ وطاب من منتجات العالم القديم .

يقول البحاثه « اسبرنجر » إن صادرات مكة فى وقت الهجرة لم تكن تقل قيمتها عن خمسين ومائتى ألف دينار من الذهب ، والدينار خمسة عشر فرنكا ، أى نحو ثلثى الجنيه المصرى .

فإذا ذكرنا ارتفاع قيمة المعادن النفيسة فى ذلك الزمن ، وذكرنا أن « اسبرنجر » إنما يقدر قيمة الصادرات وحدها ، أدركنا مقدار البضائع التى تتبادلها مكة ، وهى وسيط بين اليمن والحبشة ، والإمبراطوريتين الرومانية والفارسية ، وكانت هذه التجارة الواسعة غير محصورة فى بيت أو فريق من الناس ، بل تجدون فى كتب السيرة أن أبا سفيان حين أحسّ الخطر على القافلة قُبيل بدر ، استنهض مكة كلها نخرج إليه ألف من المقاتلة ، معها مائة من الخيل ، وسبعمائة من الإبل ، ولما أصيبت قريش فى بدر تبرع أهل مكة بقافلة أبى سفيان كلها ليُمِدُّوا بها للانتقام من محمد وأصحابه وقد كانت أرباح مكة من هذه التجارة الواسعة تقدر بخمسين فى المائة من رأس المال مما أتاح لها حياة من البذخ تلحظونه فى كرم أهلها وهم يضيفون حاج الجزيرة كله ، ويسرفون فى اللهو بالخمر والميسر والقيان والطرب .

أما حالة النبى وأصحابه بالمدينة فقد مر فى بعض الأحاديث ما يكشف عنها . فالمهاجرون وقد صودرت أموالهم ومساكنهم فى مكة ، جاءوا المدينة وليس لهم من الدنيا غير إيمانهم ، فهذا ابن عمير لا يجد ما يتستر به ، وهذا على بن أبى طالب يطل من ثقب الباب على يهودى ليعمل فى بستانه ، كلما نزع دلواً نال تمرة حتى نال حفنة . وهذا رسول الله يخرج إلى المسجد فيجد أبا بكر وعمر ، فيقول : ما أخرجكما ؟ فيقولان : الجوع ، فيقول : وما أخرجنى إلا الجوع . فإذا ترك الرسول مكة تَنْعَمُ بما هى فيه ، وتسمع بماهم فيه ، أيكون ذلك مؤيداً لانتشار الدعوة ، وخذلان

الشرك ؟ كلاّ ؛ فإن قريشاً كانت تجعلهم مضرب الأمثال ، وموضع السخرية ، تمر على المدينة بمتاجرها وعزها ، تستهوى الضعيف ، وتفتن البائس ، ثم تبطش انتصاراً لهُبَل ، وترضّى بأذى المسلمين اللاتَ والعزّى .

لقد كان محمد صلى الله عليه وسلم أصدق لرسالته ، وأبرّ بأصحابه ، وأسمى همة ، وأعظم شجاعة من أن يستكين ، وأن يقيم على هذا الهوان ، فشرع فى الحال يتهيأ للعمل الحاسم ، يرد به قريشا إلى رشدها ، بإصابتها فى أعز شىء لديها ، وهو تجارتها ، ويردّ الأعراب عن ذلك الحصار ، الذى يجعل من الشرك نطاقاً حول المدينة ، ويؤمّن المدينة نفسها من الفتن التى يثيرها اليهود بين أوسها وخزرجها ، وبين المشركين والمسلمين عامة .

تلك أغراض ثلاثة لابد لإدراكها من القوّة ، وخلق هذه القوّة وتنظيمها ، والاستعانة بها على أسمى المقاصد ، هو عمل امتاز به محمد صلى الله عليه وسلم على من سبقه من الرسل . وذلك الدور فى تكوين المدينة وتدريب المهاجرين والأنصار ، والخروج بهم على الناس جميعاً ، هو من أدق ما امتُحن به محمد مصلحاً ، ورجلَ دولة ، وفيه تجلى له من حسن الذوق السياسى والعسكرى مالا يضاهيه إلا أخلاقه الفاضلة .

أثره في التربية العسكرية

بعد وصوله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بستة أشهر فقط عقد أوّل راية فى الإسلام لعبد الله ابن الحارث بن المطلب ، ثم أخذت سراياه وغزواته تتتابع ؛ وبالرغم من أن كل هذه السرايا قبل بدر لم تدرك غرضاً من الأغراض الظاهرة من قريش ، فإنها أدركت أغراضاً سياسية وعسكرية كان لابد منها لتثبيت الحكم ، وظهور الدولة ، فقد أحيت آمال المهاجرين ، ورفعت حالتهم المعنوية ، ونشطت أبدانهم التى كانت دائماً غرضاً لحمَّى يثرب ، كما عوّدت المسلمين العمل المشترك فى قيادة موحدة ، ليس للأحساب والأنساب سلطان فيها ، ولا للقبيلة والعصبية علاقة بها ، بل إن هذه الحركات العسكرية المستمرة هى التدريب الدائم ليوم الفصل .

وقد علمت المدينة من هذه الحركات العسكرية أن محمداً جادٌّ فى مقاومة القوّة بالقوّة ، وعلم الأعرابُ أن الرجل الذى يخرج بسراياه ليتمرّض لقريش ، ليس بالذى يُغمز جانبه ، أو يُباح حماه ، ولو علموا فيه ضعفاً لتطاولوا على المدينة ، وجعلوا من نهْب حيوانها وقتل رعاته ، حديث فخرهم ، وأناشيد نسائهم .

وكذلك علمت قريش أن محمداً وأصحابه الذين أخرجوا من ديارهم بغير حقّ إلا أن يقولوا ربُّنا الله ، صاروا فى المدينة أخطر على حياتها الاقتصادية ، وإن ظنّتهم أقل خطراً على حياتها الدينية ، وفهمت أنه الآن يصادرها فى أعزّ شىء لديها ، وهو التجارة ، كما صادرته فى أعزّ شىء لديه ، وهو العقيدة ، فإن كانت تريد حرّية التجارة ، فلابدّ لها من الاعتراف بحرية العقيدة ، وهو ما وصل إليه فى معاهدة الحديبية بعد تلك الحوادث الدموية فى بدر وأُحُد والأحزاب .

دامت هذه التدريبات العسكرية نحو سنتين ، فلما أحسّ النبى صلى الله عليه وسلم فى أصحابه القدرة على قبول معركة ترفع مقامهم فى نظر العرب كافة ، لم يتردد فى التقدم لها ، فنزل بدراً ، وانتظر فيها قريشاً ، فجاءته فى العَدد والعُدَّة ، فى ألف مقاتل بأحسن أسلحة العصر ، ومائة فارس ، وسبعمائة بعير .

وكان هو فى قوّة من أربعة عشر وثلثمائة راجل ، سلاحهم السيوف ، ومعهم ثلاثة أفراس ونحو سبعين بعيراً .

أراد أن يطمئنّ إلى حسن استعداد أصحابه للقتال ، فسألهم الرأى ، فأما المهاجرون فتكلموا وأحسنوا ، حتى قال المقداد بن عمرو : امض يا رسول الله ، فوالذى بعثك بالحقّ ؛ لو سرت بنا إلى بَرْك الغماد[1] لجالدنا معك من دونه حتى نبلغه ، فشكره رسول الله ، ثم قال : أشيروا علىّ أيها الناس — يريد الأنصار — لأن بيعتهم له كانت على أن يمنعوه مادام فى ديارهم ، فكان يتخوّف أنهم لا يرون نصرته إلا على من دهمه فى المدينة من عدوّه ، وليس عليهم أن يسير بهم إلى عدوّ خارج ديارهم . فقال سعد بن مُعاذ : والله لكأنك تريدنا يارسول الله ؟ قال : أجل ، فقال سعد : قد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ماجئت به هو الحقّ ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا ، على السمع والطاعة ؛ فامض يارسول الله لما أردت ، فنحن معك ، فوالذى بعثك بالحقّ ! لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ماتخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا العدوّ غداً ، إنا لصُبُرٌ فى الحرب ، صُدُق عند اللقاء ، لعلّ الله يريك منا ماتقرّ به عينك ، فسر بنا على بركة الله ... فسُرّ عليه الصلاة والسلام بقول سعد ، وقال سيروا وأبشروا ، فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين ، والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم .!

هذا هو روح الجيش قُبَيل بدْر ، يعبر عنه رجل من المهاجرين ، وآخر من الأنصار ؛ نفوس صاغها الإيمان ، وصقلتها الطاعة والتدريب والنظام ، وذلك هو عقل بطل الأبطال يتجلى فى المشورة والأدب والوفاء . أما المشورة ففى ترديده : أشيروا علىّ أيها الناس ، وهو يعلم أنه لو خاض بهم البحر ، أو اجتاز القفر ، ماخالفوه ؛ وأما الأدب والوفاء فهو استئذانه الأنصار قبل أن يعرضهم لحرب لم يبايعوه على مثلها من قبل .

فلما خاض المعركة انتصرت القِلة فى العَدد والعُدة ، على الكثرة ، والفريقان عرب وشجعان ، وإنما رجح جيش محمد كلّ هذا الرجحان بأمرين ظاهرين :

---

(١) موضع باليمن ، وهو بضم الغين وكسرها .

الأول النظام ، والثانى احتقار الموت . وشهد الناس فى بدر معجزة ذلك النظام حين أغارت خيل المشركين على الصفوف المرصوصة ، فلم تحركها من مكانها قدماً واحدة ، وارتدَّت عنها حائرة ، إذ رأت ما لم تسمع به من قبل ؛ ذلك أن للخيل إذا أقبلت فى زحفها مغيرة رهبة يعرفها من مارسوا الحروب ، وقلما تثبت لها الراجلة . شهد الناس فى بدر ثلاثمائة رجل ربّاهم محمد ونظمهم ، يستفتحون الجهاد فى سبيل الله على الأحمر والأسود والأبيض ، فتفتح لهم الأرض ، فعلم الناس منذ يوم بدر ما للنظام واحتقار الموت من قوّة ، كما رأوا بعدُ فى الخندق كيف يمكن قوماً أحبُّوا الحقّ أكثر مما يحبّون الحياة أن يردّوا الأحزاب عن مدينتهم ، وبان كذلك كيف يرجح النظام على العدد والعدَّة .

ففى وقعة الخندق أو الأحزاب ذر[1] قرنُ النفاقِ ، ونقضَ اليهود عهد رسول الله ، وجاء العدوّ المدينة من فوقها ، ومن أسفل منها ، وزُلزل المسلمون زلزالاً شديداً ، ولـكن التدريب المحمدى للـكتائب المرصوصة ، وتلك القيادة الماهرة التى لا تُحْرَج بشىء ، ولا تضيق ذَرْعاً ، وذلك العقل الخصب ، قد أتمّ بالرأى والحيلة ما بدأته الشجاعة والصبر ، وانصرفت الأحزاب عن المدينة فى ظلام الليل ، يركب زعيمها ناقته ، فيسوقها ولما يُفَكَّ عِقالها ، فتقوم على ثلاث .

تلك القيادة المحمدية الماهرة ، هى التى أنقذت المدينة كذلك من قبل فى أُحد ، فسارعت ، ولما يُفِق الجيش من صدمته ، إلى الحركة والظهور للعدوّ بمظهر الطالب له ، المتقدّم إليه ، ولولا هذه المسارعة التى لا تـكون إلا للنظام والطاعة ، لدهمت قريش المدينة ، وقضت على بقية جيش المسلمين فيها . تلك القيادة الماهرة لجند مدرّب ، هى التى جعلت قريشاً تتراجع ، والمهزومون بالأمس يتعقبون الذين انتصروا عليهم .

هذه بعض مُثُلٍ نعرضها موجزة ، وتجدون تفصيلها فى كتب التاريخ ، ليتبين قدر محمد صلى الله عليه وسلم رجل دولة وقيادة ، وما أوتى من حسن السياسة ، وحسن القيادة ، ولتتجلى لطلاب الحق ذاتُه الجامعة .

ومن العجيب أن هذه التدريبات العسكرية ، والواقعات والحروب والـكايد

---

(١) طلع .

والحيل والرأى والتدبير الذى أشرنا إلى شىء منه سابقاً قد أخرج الدولة المحمدية ، التى صارت أساس أعظم الإمبراطوريات فى تاريخ البشر ، من غير أن تكون مقصودة لذاتها ! وإنا لنكون مقصرين نحو الحقّ التاريخى ، ونحو ما نعتقده نتيجة للبحث ، إذا تركنا الناس يتوهمون أن الدولة كانت غرضاً أصليًّا للرسول صلّى الله عليه وسلّم ، بل الواقع أنها جاءت عرضاً ، ووجدت كوسيلة صالحة للغرض الأوّل ، وهو القضاء على الشرك ، وإحلال الإيمان بالله وحده محل عبادة الأوثان ، فإن مكة لما بالغت فى القسوة وأسرفت فى اضطهاد المسلمين ، نفدت كلّ مساعى الرّسول السلمية فى أن يجد للعقيدة الإسلامية حياة حرّة ، وللدعوة مجالاً طليقاً ، فلجأ إلى دفع القوّة بالقوّة مطالباً بحريّة الأديان كلها : « وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ » .

كان كلّ هذا الصراع المسلح يرمى إلى شىء أساسى واحد ، وهو تقرير حرّية العقيدة فى أشدّ الأقوام همجية ، فظهرت صفات بطل الأبطال فى التنظيم وبناء الدولة كما ظهرت من قبل خارقة فى الثبات على المبدأ ، والصبر على الأذى ، وبيان الحجة ، واستقامة الوسيلة ، ووضوح الغاية .

وسنتحدّث فيما بعد عن الحرّية الدينية ، وكيف كانت هى الغرض الحقيق لسياسة بطل الأبطال فى المدينة .

الناحية العسكرية فى بدر

قد يكون من المفيد أن نخص معركة بدر ببعض ما تستحقه من إفاضة الحديث لما لها من الأثر الحاسم فى تاريخ المسلمين العسكرى ، ولا أستطيع أن أصف المعركة فى بدر دون أن أشير إلى الحالة العسكرية فى الجزيرة قبل بدر ، وما صارت إليه بعد بدر .

لقد كان العرب على علم تامّ بضروب القتال كما هى الحال فى العالم فى ذلك العصر ، فكانوا يعرفون فنونه وأدواته كما تعرفها الأمم المحيطة بهم ، وكانت قريش بين العرب ممتازة بالثروة والرحلة والإحاطة بما يحدث فى العالم أكثر من غيرها من القبائل العربية ، كما كانت تتمتع بالسيادة الدينية فى الجزيرة ، وتتمتع بتجمع قواها فى مكة ، مما يمكنها دائماً من سُرعة الحشد والتعبئة . لكل ذلك آلت إليها القيادة العسكرية ، كما آلت إليها القيادة الدينية ، فكانت مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم انتزاع هذه السيطرة من قريش ، لينتزعها من الجزيرة كلها . ولم يكن من الممكن بعد تجربة دامت ثلاث عشرة سنة يدعو فيها إلى دينه بالوسائل السلمية ، دون أن يصل إلى حرّية العقيدة بسبب سطوة قريش ونفوذها فى العرب ، ألا ينازعها هذه السيطرة . فغزوة بدر لم تكن أمراً عرضياً ، ولا كان كل المقصود بها فى الواقع مجرد الاستيلاء على عِير قريش ، بل كان المقصود كذلك ضرب قريش فى قوّتها الحربية .

وقد أدرك الرسولُ أن أصحابه أصبحوا من النظام الذى بثه فيهم ، والروح المعنوى الذى سرى فى نفوسهم ، من اجتماع الكلمة والفناء فى سبيل الحق ، بحيث يستطيع أن يلقى بهم سادة الجزيرة العربية فى أول معركة منظمة . ولو لم يكن يعلم هذا ، وكان يخشى لقاء قريش مجتمعة ، لذهب إلى طريق الشام يلقى عِيرها ، ولكان ذلك أهون عليه ، لأنه يلقاها فى مكان أبعد عن مكة من المكان الذى لقيها فيه ، فهو إذن لم يقصد قافلة التجارة لذاتها ، ولكنه أحب أن يلقى معها جيش قريش .

تقدم الرسول إلى بدر بكتيبة ليس لها من مُعَدَّات الجيوش ما لقريش ، فقد كانت الخيالة فيها لا تزيد على فارسين فى رواية ، وثلاثة فُرْسان فى رواية أخرى ، ولم تكن لها دروع ولا سلاح غير السيوف ، بل لم يكن لها ما يكفى من الإبل لحمل العتاد والرِّحال . هذا على حين كان لقريش العدد والعُدَّة ، فكان عدد فُرْسانها مائة فارس ، وكان مشاتها ثلاثة أضعاف المشاة من أصحاب الرسول ، وكان معها من الإبل ما يكفى لأن يذبحوا لطعامهم عشرة كلّ يوم ، وكان كل ما يعرف من أنواع السلاح إذ ذاك متوافراً لها بسبب ثرائها ، واستعدادها الدائم للحرب وخصوصاً هذه المعركة ، ولكن شيئاً آخر عظيماً كان متوافراً لأصحاب الرسول ، فاستعاضوا به عما كان ينقصهم من العَدد والعُدّة ؛ أما هذا الشىء العظيم فهو أمور ثلاثة :

الأول : النظام ، فإن التربية المحمدية سواء أكانت فى صورة العبادة ، أم تلقين عقيدة التوحيد ، أم إرجاع الأمر إلى الله مع حسن العمل ، أم الإيمان بالمساواة فى عمل الدنيا والآخرة ، أم إيثار الشهادة فى سبيل العقيدة على الحياة وما يتعلق بها من أحوال الأهل والعشيرة ، وكذلك انطباع نفوسهم بطاعة الرسول وأولى الأمر منهم — إن هذه التربية أحدثت فيهم قوّة جديدة لم يكن العرب يعرفونها من قبل ؛ تلك هى قوّة النظام التى رجحت بها كتيبة المؤمنين على جيش المشركين .

والثانى : القوة المعنوية التى ملأ بها الإسلام نفوسهم ، فإنهم دون مشركى العرب كانوا يؤمنون بالبعث ، فهم لذلك لا يرون فى الموت فناء مطلقاً ، بل يرون أن وراءه — مع إدراك فضل الشهادة — حياة أبقى وأسعد من هذه الحياة .

من أمثلة ذلك أن شابًّا فى السادسة عشرة من عمره كان فى كتيبة المؤمنين ، فلما سمع الرسول يحرض المؤمنين على القتال ويَعِدُهُمُ الجنة قال : إذن ليس بينى وبين الجنة إلا هذه التمرات ؟ وهى تمرات كان يأكلها ، فقذفها ، وحمل بسيفه على المشركين ، فلم يزل يقاتل مستبسلا حتى لقى الموت الذى يريده .

والثالث : وحدة القيادة ، فقد كان المسلمون ممتازين بها ، يتفانون فى الإخلاص والطاعة لقائدهم ، وذلك من الأمور التى ضاعفت قواهم .

ولنذكر لذلك ما حدث فى أثناء المعركة ، إذا رأى النبى صلى الله عليه وسلم

وهو يقوّم الصف ، رجلا خارجاً عن رفاقه فى الصف ، فوكزه ، فقال الرجل : أوجعتنى يا رسول الله ، فأقِدْنى منك ، فكشف النبى صلى الله عليه وسلم عن بطنه وقال : اقتصّ لنفسك ، فقبل الرجل بطن النبىّ ، فقال النبىّ : ولم إذن ؟ قال أردت أن يكون هذا آخر عهدى بالحياة .

تلك أهم الأسباب التى استعاض بها المؤمنون عما كان فى جيشهم من نقص العُدة والعدد ، ولا تظنوا أن قريشاً كانت خائرة فاقدة للنظام والقوة المعنوية ، فقد كان لديها أكمل نظام يعرفه العرب ، ولها من عزّتها ، ومن حبّ المحافظة على سيطرتها العسكرية ، ومن الرغبة فى الانتقام لحادثة نخلة وقتل ابن الحضْرمى ، ومن العزم على الاحتفاظ بحرية التجارة وسلامة الطرق الموصلة لهذه التجارة ، ما جعلها تقاتل مستبسلة ، حتى إن رجلا منها أقسم أن يرِد حوضاً وسط جيش محمد ، فلما قطعت رجله قبل أن يصل إليه دفع نفسه إلى الحوض ، وهدم جزءًا منه برجله الأخرى ، ولما جرح أبو جهل مرّ به رجل من المسلمين وهو فى حشرجة الموت ، فوضع قدمه على عنقه ، وقال : أرأيت كيف أخزاك الله ؟ قال وبم أخزانى ؟ أعارٌ أن أقتل ؟

من هذا تدركون عظم مهمة الجيش الإسلامى فى سبيل انتزاع السيطرة العسكرية التى كانت لقريش .

أما كيف وقعت المعركة نفسها ، فقد تقدّم الجيش الإسلامى من الشمال إلى الجنوب ، فلما وصل إلى ساحة بدر كانت ميمنته سلسلة من التلال المرتفعة ، وكذلك على ميسرته سلسلة أخرى أقل ارتفاعاً .

وتقدم جيش المشركين ، وكان أمامه كُثْبانٌ من الرمل تقع غرب وادى بدر ، وعلى ميسرته أرض صخرية قليلة الارتفاع .

فى السهل الذى بين هذه الجبال وهذه الكُثْبان وقع أول تصادم بين القوّتين ، وكانت الليلة التى سبقت المعركة شاتية ، فهطل مطر غزير فى ناحية قريش ، وكان أقل غزارة فى ناحية المسلمين ، جَعل مهمة قريش فى التقدم إلى ساحة بدر أشق من مهمة المسلمين ، ولما تقدموا فى الصباح استقبلت المشركين الشمس من المشرق ، وهم متجهون إليها ، فكانت من العوامل الطبيعية المؤذية لهم .

نشبت المعركة كما تنشب المعارك فى ذلك العصر ، بفُرسان يتقدمون الصفوف ويتصارعون ، فتقدم ثلاثة من بنى هاشم ، ولقيهم ثلاثة من صناديد المشركين ، وفى دقائق معدودة فتك المسلمون بأندادهم ، فكان هذا استفتاحاً حسناً للقتال ، وهنا أمر رسول الله بذلك الأمر الحكيم ، أمر الكتيبة الإسلامية أن تتراصّ وألا تتحرك من مكانها ، وأن تصدّ بالنبال خيل العدوّ وهى تأتيها من جوانبها . فرأت قريش لأول مرة كيف تثبت الراجلة أمام حملات الخيالة غير هيابة ولا مرتبكة ، وللخيالة كما قدمنا هيبة عظيمة فى هجومها ، يعرفها الذين مارسوا الحرب وشاهدوها . حمى الوطيس ورسول الله يدعو ويحرض على القتال ، والمشركون على عديدهم وعدتهم واستبسالهم ، يحاربون قوماً قد امتنعوا بسيوفهم ، وآثروا الموت على الحياة . انتهى الأمر بهزيمة المشركين ، فانطلق المسلمون فى إثرهم ، وأثخنوا فيهم ، لا يلتفتون إلى نهب ولا سلب ، كعادة العرب فى ذلك العصر ، حتى انقلبت الرجعة القرشية فراراً مُخزياً ، وانكساراً غير مسبوق لقريش .

كانت قتلى قريش فى هذه المعركة خمسة أمثال قتلى المسلمين ، وكان أسراهم مثل قتلاهم ، ولكن ليس المهم فى بدر عدد من دفنت من القتلى ، ولا عدد الأسرى ، ولا مقدار الغنائم ، وإنما المهم هو أن قريشاً دفنت فى وادى بدر سيادتها على الجزيرة العربية . وليس الأمر الخطير هو أن محمداً صلى الله عليه وسلم رجع بأعدائه مكبّلين إلى يثرب ، وإنما هو أنه رجع بالسيطرة العسكرية وقد انتقلت من مكة إلى المدينة .

رجع النبى إلى المدينة وقد ثبت أن النظام العسكرى الذى استحدثه هو نظام يفوق ما يعلمه أهل العصر ، فوضع فى بدر قواعد الجيش الإسلامى ، وكانت هذه الكتيبة نواة له .

ومنذ بدر والإسلام ينتشر ، وجيوشه تسير إلى المشرق والمغرب ، تطوى الممالك ، وتثل العروش ، وتتغلب على العقبات بأمرين : حب النظام ، واحتقار الموت ؛ ولا يزال هذان الأمران دِعَامَتَى النصر ، ولن ترجع للمسلمين سيادتهم الأولى حتى يقيموا حياتهم وجيوشهم على الأساسين اللذين وضعهما رسول الله ، واللذين مكنا له فى بدر برغم العُدّة والعدد والبسالة التى كانت لخصومه .

دفاع عن حرية العقيدة

وقفنا عند بيان قصد الرسول من حركاته العسكرية ، ووقعاته مع المشركين ، وقلنا : إن الأساس هو الوصول إلى حرية الدعوة ، بل إليها وإلى حرية العقيدة للأديان السماوية جميعاً ، وقلنا : إنه ليس أدل على هذا القصد من هدنة الحديبية بل ليس أدلّ عليها من القرآن نفسه ؛ انظروا إلى هذه الآيات :

« أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ، وإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ » فالإذن بالقتال مُعَلّل باضطهاد العقيدة ، ومصادرة حرية الناس فى أن يقولوا ربُّنا الله ، وتلك هى الآية التى شُرع بها القتال ، ثم هذه الآية « وَقَاتِلوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ ويَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلهِ ، فإِنِ انْتَهَوْا فإِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِير » ففيها أيضاً الأمر بالقتال مُعَلّلا بمنع الفتنة ، وهى الإكراه على تغيير العقيدة ، فإن انتهى الأعداء عن هذا الإكراه تُرِك أمرهم إلى الله ، وكذلك قوله تعالى : « وقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا » فالقتال هنا مُبَرَّر بالدفاع عن الحرية ، على أن لا يتجاوزها إلى العدوان . ثم انظروا إلى الآية الآتية كيف جعلت القتال مُبَرَّراً بالدفاع عن حرية الأديان السماوية جميعاً ، وجعلت الغاية منه أن يتمكن المسلمون من إقامة الصلاة ، والبر بالمساكين ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : « وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وبِيَعٌ وصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فيها اسمُ اللهِ كَثِيراً ، وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيز ؟ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ ، وَآتَوُا الزَّكَاةَ ، وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ ، وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ » .

واضح من كل هذه الآيات غرض الإسلام من القتال ، وهو منع الفتنة واضطهاد الناس ، وردهم عن عقائدهم قسراً .

تلك الفتنة التى هى أكبر من القتل ، وأسوأ عاقبة من الحرب : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ؟ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ . وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخراجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَاللهِ ،وَالْفِتْنَةُ أَكْبرُمن القتل، وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُم إِنِ اسْتَطَاعُوا » . فغرض النبي كما هو جلى من القرآن ، هو الدفاع عن حرية العقيدة ، وقتال المشركين حتى يسلموا باحترام هذه الحرية .

ولما استقر لمحمد الأمر فى المدينة ، وصفت أحوالها ، وخلصت له ، وأدرك أعداؤه أن لا أمل لهم فى مهاجمتها ، ورجحت قوى الدولة على ما حول يثربَ من المشركين واليهود ، كما استقرت هيبته فى نفوس القبائل ، وسار بحديثه الركبان فى جزيرة العرب كلها ، وأصبح تام السلطة على الطرق إلى مكة ، فحصرها وقضى على حرية تجارتها ، وصار بذلك قريباً من وضع السيف فى غمده ؛ لحظ بثاقب نظره أن الساعة قد أتت لهدنة مع مكة ، فسار فى جيش من الأنصار والمهاجرين وحلفائهم وساق الْهَدى ، وأعلن أنه يريد الحج ولا يريد قتالا .

سمعت به قريش فخرجت لتصده عن البيت ، واستعظمت أن يدخل عليها هذا الدخول ، وأبت أن يتحدث العرب بأن محمداً طاف بالبيت ، وجاء مكة فى مَنَعَةٍ من قوته ، فتحالفوا وتعاهدوا على ألا يدخلها عليهم أبداً ، وكان جيش محمد على تمام الاستعداد لاقتحام ديار المشركين إذا منعوه فى الشهر الحرام ، من حق لجميع العرب ، وهو حج البيت ولكن محمداً صلى الله عليه وسلم كان يرغب فى شىء آخر ، فقد عقد العزيمة منذ خرج من المدينة على ألا يقاتل ، وجعل السلم نُصْب عينيه ، ومحمد صلى الله عليه وسلم لا يرده عن عزمه شىء ، ولا يحوله عن مقصده أحد ، قد اجتمعت له العزيمة الصادقة والحكمة والأناة .

تلقَّى عنت قريش بالصبر ، فسلك طريقاً وعْراً بأصحابه حتى لا يصطدم بأعدائه ، وحتى يعطيهم فرصة للتفكير فيما هم مُقْدِمون عليه ، وقال : لا تَدْعونى قريش اليوم لخُطّةٍ يسألوننى فيها صلة الرحم إلا أعطيتّهم إياها . فلما نزل الحديبية

فى حرم مكة بالغت قريش فى عنادها ، وأبوا إلا أن يرجع بالهَدْى وقد ساقه ، وألاّ يطوف بالبيت وقد أحرم للحج والعُمْرَة .

ولما أرسل من يؤكد لهم حسن قصده ، عقروا بعيره ، وهموا بقتله ، فاستمر فى إيفاد الرسل ، والنصح لهم فما ازدادوا إلا طغياناً وكبراً ، وبعثوا رجالا ، وأمروهم أن يطوفوا بعسكر محمد ليصيبوا لهم من أصحابه ، فأخذوا أخْذاً ، وأتى بهم إلى رسول الله ، فعفا عنهم ، وخلى سبيلهم .

أنتج هذا الصبر المحمدى نتيجته سريعاً ، فعلمت العرب أنه لا يريد قتالا ، ولا يضمر شراً ، وأخذ أحسن حلفاء قريش ينفُضون أيديهم من إثمها ، وأعلن زعيم الأحابيش أنه لا يرضى عن صدّ الناس عن البيت ، وأنهم لم يحالفوا قريشاً على شىء من هذا ، ونصح لهم إخوانهم من ثقيف بعدم التعرّض لمحمد ، وأرهبوهم من بأس المؤمنين معه ودنت بذلك الغاية التى أرادها الرّسول صلى الله عليه وسلم ، وهى المهادنة وإحلال السلم محل القتال ، فجاءه سهَيل بن عمرو مفوَّضاً من قريش ، ليصالحه على أن يرجع عامه هذا ، ثم يأتى فى العام القابل ، فيحجّ ويقيم فى مكة ثلاثة أيام ، بعد أن تخليها له قريش .

شقّ على المسلمين أن يرجعوا ، ولكن الرسول قبل ذلك ، وجرت المفاوضات على هدنة لعشر سنين ، فاشترطت قريش أن من يلجأ فى أثنائها إلى محمد من غير إذن وليه يرده إلى قريش ومعاهديها ، وألا ترد قريش وحلفاؤها من يلجأ إليها من أصحاب محمد .

فلما قبل الرّسول هذا الشرط وثب عمر بن الخطاب ، فأتى النبيّ ، فقال : يا رسول الله ، ألست برسول الله ؟ قال : بلى ، قال : أوَلسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى ، قال : أوَليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى ، قال: فعلامَ نعطى الدنيَّة فى ديننا !؟ قال : أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعنى ! .

كاد الناس يهلكون مما دخل عليهم من أمر هذا الصلح وشروطه ، ورجوعهم عن زيارة البيت ، ولكن التربية المحمدية ، والعزيمة القوية التى أظهرها الرسول بإصراره على إقامة السلم ، أقرّت الأمور فى نصابها . فلما جلسوا لكتابة العقد ،

تجلى صبره مرة أخرى ، فإنه دعا علىّ بن أبى طالب ، وقال له : اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال مفوّض قريش سهيل بن عمرو : أمسك ، لا أعرف الرحمن الرحيم ، بل اكتب باسمك اللهم . قال رسول الله : اكتب باسمك اللهم ، ثم قال : اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو ، فقال سهيل : أمسك ، لو شهدت أنك رسول الله ما قاتلتك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ، قال رسول الله : اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله ، وهنا يظهر إنصاف محمد وسمة صدره ، ويتجلى سر من أسرار عظمته ، وهو قصده دائماً إلى الجوهرى من الأمر ، واستصغاره للأشكال والمرسومات .

عقدت الهدنة ، ورجع المسلمون وهم كارهون ، ووسوس الشيطان فى نفوس بعض الناس لما قبل الرسول شرط تسليم من لجأ إليه على ألا يطلب من لجأ إلى عدوه ، وأن يرجع عن الحج كما أرادت قريش بعد أن أحرم له ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يشغله شىء إلا الوصول إلى حرية الدعوة فى ظلال السلم ، ويعلم أن ذلك هو الفوز .

وبينما هم فى الطريق نزلت سورة الفتح ، فسمى القرآن هذا الصلح البغيض فتحاً مبيناً « إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ، وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ، وَيَهْدِيكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً » . وقد تحقق بعدُ صدقُ نظر الرسول ، ووعدُ الله ، فدخل الناس فى دينه أفواجاً ، ولم يمض سنتان على صلح الحُدَيبية حتى دخلَ فى دين الله أضعاف من دخلوا فى السنوات العشرين السابقة فكانت هذه الهدنة التى أرادها الرسول على رغم أنف أصحابه ، ورغم أنف قريش وعنادها وعنتها ، بركة على الإسلام ، لم يرَ قبلها فتحاً أعظم منها . وقد انقلب حتى ذلك الشرط البغيض من تسليم اللاجىء المؤمن إلى الكفار يؤذونه ويفتنونه إلى الخير ؛ فكانت قريش بعد سنة من الصلح تحاول التخلص منه وأن يقبل محمد صلى الله عليه وسلم إلغاءه ، وذلك أن بعض المستضعفين من المسلمين كانوا يلجأون إلى النبى فيسلمهم ، وفاء بعهده ، فلما سلم أبا بصير فر إلى جهة فى ساحل البحر ، وصار يفرّ إليه أمثاله ممن لا يستطيعون الالتجاء إلى المدينة ، حتى

تكاثروا ، وقطعوا الطريق على تجارة مكة ، وعاد إليها البلاء وضجت ، واستجارت بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وسألته بصلة الرّحم أن يُؤوى أبا بصير وإخوانه ، وأن يعفيها من ذلك الشرط ، ويدخل من يلجأ إليه فى عهده ، فقبل ، وكانت هذه آية من آيات السياسة المحمدية ، وفضلا من الله على أخلص عباده .

قبل النبىّ رجاء أعدائه ، فأمن لهم تجارتهم ، وأثبت أنه لا يريد بالحرب إلا تقرير حرّية الدعوة ، وحرّية العقيدة ، وأنه لا يريد نهب تجارة مكة ، ولا الانتقام منها كما يظن بعض كتاب الملل الأخرى .

فهو الذى كبح جماح جيشه ليقبل شرطاً بغيضاً فى سبيل السلم عشر سنين ، فى الوقت الذى تمت سيطرته على طرق المواصلات التجارية لمكة فى الشمال ، بل كان فى مكنته أن يتعرّض لطريق الجنوب بين مكة والطائف . واستدعاء أبى بصير وصحبه ، وهو غير مسئول عنهم ، تمتعاً بالسلم الذى أراد ، يبين فساد ما ذهب إليه هؤلاء الكتاب .

ولما اطمأن إلى صلح يكفل له الأمن من ناحية قريش ، اتجه إلى مكاتبة الملوك والعظماء فى أنحاء العالم ، يدعوهم إلى دينه ، ووجه حركاته العسكرية إلى الروم ، الذين أخذوا يقاتلون دعاة الإسلام ، ويضطهدون الدعوة المحمدية ، فكان صلى الله عليه وسلم بارعاً ، بعيد النظر فى اغتنام أوّل فرصة لنقل ميدان الكفاح العسكرىّ بسرعة من قلب الجزيرة إلى أطرافها ، فاستشعر العرب سموّ مطلبه ، وبُعد غايته ، وبذلك جمعهم تحت لواء القومية المتحدة ، فكانوا عدّة صالحة لدعوته العالية .

سارع إلى العمل ، وقد أدرك بثاقب بصره أن الدولة الرومانية لن تصبر على ظهور دولة للعرب بالمدينة ، وأنها سائرة إليه فى النهاية ، وأنه ما غُزِىَ قوم قَطُّ فى عُقْرِ دارهم إلا ذَلُّوا ، فنقل الميدان بسرعة مدهشة ، تدلُّ على فطنة فى السياسة ، ودراية فى الحرب منقطعة النظير .

ومنذ أن غزا الروم فى مُؤْتَة ، وسهام العرب ، وآمالها تتّجه إلى غاية أسمى من الثأر والانتقام والنهب ، وحالتهم المعنوية تسمو من درك التناحر الأهلى إلى مقام الكفاح العالمى ، لغرض أعلى من متاع الدنيا .

وهكذا تدرّج محمد صلى الله عليه وسلم من العشيرة ، إلى الوطن ، إلى القومية ، إلى الدولة العالمية ، فاتخذ لهذه الدولة العالمية العرب ، ونفخ فيهم من روحه ، وبعثهم بالرسالة للأكاسرة والقياصرة ، فحملوهم عليها ، وقامت دولة الإسلام ، لا تعرف عصبية ولا عنصرية ، ولا لوناً خاصًّا ، ولا شيئاً غير التقوى يمتاز الناس بها . ومنذ أن انصرف إلى الشمال بعد صلح الحديبية أدرك كل رجل ذى بصيرة من خصومه سواء أكان فى قلب الجزيرة أم فى أطرافها ، أن واجبه أن ينطوى تحت اللواء الذى رفعه محمد صلى الله عليه وسلم للأمة المشتتة المتناحرة المحتقرة فى نظر جيرانها من الروم والفرس ، فسارع إلى هذا اللواء خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص بطلا قريش ، وبطلا الإسلام فيما بعد ، وسيدا مخزوم وسَهْم ، أشدّ بطون قريش عداوة لمحمد ودعوته ، فكان هذا فاتح العراق وبطل المشرق ، وذلك فاتح مصر وبطل المغرب .

نقضت قريش لقصر نظرها ، عهد الْحُدَيْبِيَة لما ظنت أنه تورط فى قتال الروم ، فنصرتْ بكراً على خُزَاعة حُلفاء النبى ، فسارع كما هى عادته بصدق عزيمة ، وحسن فراسة ، إلى قبول نَكْثها للعهد ، ورفض تجديد العقد وعبّأ قواه ، وكتم سرّه وتحرّك فى عشرة آلاف إلى مكة ، فدخلها بغير حرب .

وأقول بغير حرب لأن المقاومة الضعيفة التى أبداها عِكرمة ، وصفَوان ، وسُهيل فى الجهة التى دخل منها خالد ، لا تدل على شىء غير استسلام مكة ، وعجز قريش التام .

وبفتح مكة توّجت سياسة الرسول الحسنة ، وحكمته فى تصريف الأمور بأعظم جزاء من الله ، واستقرّت الدولة المحمدية فى جزيرة العرب على أقوى الدعائم ، وأمتن الأسس ، ورجع البيت كما كان على عهد إبراهيم مقرًّا للتوحيد ، مُنزّهاً عن الشرك ، قبلة للعاكفين والقائمين والرُّكَّع السُّجُود لله وحده .

مثل من سياسته

تكلمنا فى الفصول السابقة عن حسن سياسته صلى الله عليه وسلم وحكمته فى تصريف الأمور ، فتناولنا بعض دعائم هذه السياسة ، وخططها الرئيسية ، لنتبين عظم هذه الناحية فى ذات بطل الأبطال صلى الله عليه وسلم .

والآن نريد أن نسوق بعض الأمثلة من تصرفاته فى بعض المواقف والحوادث الطارئة ، لتتجلى صورة الكياسة ، وسلامة الذوق ، وحسن التقدير ، ونكون بذلك قد أثبتنا على قدر جهدنا شيئاً من صفاته وأخلاقه ، يقرب إلى الأذهان مثله الكامل .

وها كم موقفه مع عبد الله بن أبىّ بن سَلول زعيم المنافقين ، وسيد الخزرج عقب وقعة بنى المصطلِق[1] .

كان قوم عبد الله حين جاء النبى إلى يثرب مهاجراً ، ينظمون له الخرز ليتوجوه ، فلما عظم شأن الرسول تداعى سلطان عبد الله ، وأضمر الشر ، وظهر مافى نفسه يوم بنى المصطلِق ، والرسول فى شغل بعدوه ، فكاد عبد الله يرسلها فتنة تحرم المسلمين ثمار نصرهم ، بل تذهب بريحهم .

ذلك أن أجيراً لعمر بن الخطاب ازدحم على ماء مع رجل من حلفاء الأنصار ، فاقتتلا ، فصرخ الأجير : يا معشر المهاجرين ! وصرخ الآخر : يا معشر الأنصار ! فغضب عبد الله بن أبىّ ، وقال : أوَ قدْ فعلوها ؟ قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا ، والله ما أعدُّنا وجلابيبَ[2] قريش هذه إلا كما قال الأول : سَمِّنْ كلبَكَ يأْ كلْك . أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ .

---

(١) بنو المصطلق : من خزاعة ؛ وقد غزاهم النبى بالمريسيع فى شعبان سنة ست .

(٢) جلابيب قريش : هو لقب لمن كان أسلم من المهاجرين ، لقبهم بذلك المشركون . وأصل الجلابيب الأزر الغلاظ ، واحدها جلباب ، وكانوا يلتحفون بها ، فلقبوهم بذلك (من شرح أبى ذر على السيرة) .

ثم أقبل على من حضره من قومه ، فقال لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم . . والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم ، لتحولوا إلى غير داركم . فسمع ذلك زيد بن الأرقم ، فمشى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده عمر بن الخطاب ، فقال : مُرْبِهِ عَبَّادَ بن بشر فليقتله ، فقال صلى الله عليه وسلم : فكيف يا عمر إذا تحدّث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ! لا ، ولكن أذِّن بالرحيل ، فارتحل الناس فى ساعة مبكرة ، ما كان الرّسول يروح فيها ، فمشى رسول الله بالناس يومهم ذلك حتى أمسوا ، وليلتهم حتى أصبحوا ، وصَدْرَ يوم ذلك حتى آذتهم الشمس ، ثم نزل بالناس ، فلم يلبثوا أن وجدوا مسّ الأرض ، فوقعوا نياماً . وهكذا نَهِكَ أبدانهم بالسير ، ليصرفهم عن الحديث فى الفتنة ، فلما بلغ المدينة جاءه عبد الله بن عبد الله بن أُبَىّ لمـّا بلغه ما كان من أمر أبيه ، فقال : يارسول الله ، إنه بلغنى أنك تريد قتل أبى فيما بلغك عنه ، فإن كنت لا بد فاعلا فمرنى به ، فأنا أحمل إليك رأسه ! فو الله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرّ بوالده منى ! وإنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله ، فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل أبى يمشى فى الناس فأقتلَه ، فأقتلَ مؤمناً بكافر ، فأدخل النار . فقال صلى الله عليه وسلم : بل نترفق به ، ونحسن صحبته مابقى معنا . وجعل بعد ذلك إذا حدث الحدث من عبد الله كان قومه هم الذين يعاتبونه ويعنفونه . فقال صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم : كيف ترى يا عمر ؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لى : اقتله ، لَأُرْعِدَتْ له آنُفٌ لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته . فقال عمر : قد والله علمتُ لَأمرُ رسول الله أعظم بركة من أمرى .

فى هذه القصة الصغيرة ترون كيف توسل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصبر والأناة فى أحرج الأوقات ، وترون حزمه فى كبح جماح الفتنة بالسير ليل نهار ، حتى صرف الجيش بالنَّصَب عن أن يَلِجّ فيها ، وفى هذه القصة صورة موفقة من الرفق فى السياسة والحزم فيها .

ثم هاكم مثلا آخر : كان رسول الله يوزّع العطايا بعد حُنين فوقف عليه رجل من تميم ، فقال : يا محمد ، قد رأيت ما صنعت فى هذا اليوم ، فقال رسول الله :

أجل ، فكيف رأيت ؟ فقال : لم أرك عدلت . . فغضب النبي ، وقال : ويحك ! إذا لم يكن العدل عندى ، فعند من يكون ؟ فقال عمر : يا رسول الله ألا أقتله ؟ فقال : لا ، دعه فإنه سيكون له شيعة يتعمقون فى الدين ، حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية .

وقد كانت الخوارج المتشدّدة بعد ذلك فى تميم .

ولما أعطى النبيّ قريشاً وقبائل العرب ، ولم يعط الأنصار شيئاً كثرت من الأنصار القالة حتى قال بعضهم : لقى والله الرسول قومه ! فجمعهم النبيّ ، ثم قال : يا معشر الأنصار ، ما قالَةٌ بلغتنى ، ووِجدَة وجَدْتموها علىّ فى أنفسكم ؟ ألم آتكم ضُلالاً فهداكم الله ، وعَالةً فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ قالوا : بل الله ورسوله أَمَنُّ وأفْضَلُ . ثم قال : ألا تجيبون يا معشر الأنصار ؟ قالوا : بماذا نجيب ؟ لله ورسولِهِ المنُّ والفَضْلُ . قال : أما والله لو شئتم لقلتم فَلَصَدقتم : أتيتنا مكذَّباً فصدّقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلا فآسيناك . أوجدتم يا معشر الأنصار مِنْ لُعَاعة[1] من الدنيا ، تألَّفْتُ بها قوماً ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ؟ ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ ! فوالذى نفس محمد بيده ! لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناسُ شِعْباً وسلك الأنصار شِعْباً لسلكت شعب الأنصار . اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار ! فبكى القوم حتى أخْضَلوا لحاهم ، وقالوا رضينا برسول الله قَسْماً وحَظّاً !

هذه العبارة الآخذة بالقلوب ، والصاعدة بالنفوس البشرية إلى درجة الملائكة ، والقاتلة للفتنة ، والمنعشة للأرواح ، تفسّر لنا كيف كان رسول الله يجمع الناس على غرض واحد بوسائل شتى . لقد أتى بسعة الصدر ، وحسن التصرّف بما يشبه المستحيل ، لجمع أمة لم تكن لتجتمع إلا على مثل التربية والتدبير المحمدى .

جاءه وفد من بنى الحارث بن كعب ، وكان قد بعث فيهم خالد بن الوليد ، فقال :

---

(١) اللعاعة : واحدة اللعاع ، وهو النبات الأخضر قليل البقاء ومنه قولهم : ما بقى فى الدنيا إلا لعاعة أى بقية يسيرة ، ومنه الحديث « أوجدتم ... » اللسان .

لو أن خالداً لم يكتب إلىّ أنكم أسلمتم ولم تقاتلوا ، لألقيت رءوسكم تحت أقدامكم . فقال يزيد بن عبد المدان : أما والله ما حمدناك ، وما حمدنا خالداً .. قال : فمن حمدتم ؟ قالوا : حمدنا الله عزّ وجلّ الذى هدانا بك . قال : صدقتم ، ثم قال : بم كنتم تغلبون من قاتلكم فى الجاهلية ؟ قالوا : لم نكن نغلب أحداً ، قال : بلى ، قد كنتم تغلبون من قاتلكم ، قالوا كنا نغلب من قاتلنا يا رسول الله أنا كنا نجتمع ولا نتفرق ، ولا نبدأ أحداً بظلم ، قال : صدقتم .

انظروا إلى رده : « فَمَنْ حمدتم » ؟ لتتصوّروا الأناة وسعة الصدر ، وهما من أسس السياسة المحمدية .

وكان من دواعى النجاح فى سياسة الرسول زيادة على أخذ الأمور بالرفق ، وحسن المعاملة ، فِراسته التى لا تخيب فى الرجال ، وتطلعه إلى غائب الأمر بحسن الاستخبار ، فقد كان أعرف الناس بالناس ، وأعرف العرب بحسنات العرب وسيئاتهم ولهجاتهم وما يحبون وما يكرهون ، فهو يستقصى دائماً الأخبار ، ويكتم ما يكره ذيوعه منها ، ففراسته فى سهيل بن عمرو مثلا وهو أسير ، قد تحققت بعد سبع سنين ، لماهمّت مكة بالردة بعد وفاته صلى الله عليه وسلم ، فمندماقدت قريش أسرى بدر ، وكان عمر يعارض فى الفِداء ، فاستأذن رسول الله فى أن ينزع ثنيّتى سُهَيْل بن عمرو ليدلع لسانهُ ، كى لا يقوم على الرسول خطيباً بعدها فى موطن أبداً ، أبى الرسول ، وقال : لا أُمَثّل به ، فيمثل الله بى وإن كنت نبيًّا ، وعسى أن يقوم مقاماً لا تذمه . فلما ارتدت العرب وهمّ أكثر أهل مكة بالرجوع عن الإسلام وخافهم عتَّاب بن أسِيد عامل النبى على مكة فتوارى ، قام سهيل بن عمرو ، فحمد الله ، وأثنى عليه ثم ذكر وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة ، فمن رابنا ضربنا عنقه ، فتراجع الناس وكفوا عما هموا به ، وظهر عَتّاب ، واستقرت الأمور .

ذلك هو المقام الذى أراده رسول الله فى رده على عمر بن الخطاب ، وتلك هى فراسة الرسول فى الرجال ، تحققت بعد سبع سنين .

ولما أخذ الخمسَ من غنائم هوازن وزّعه بين أعدائه بالأمس ، فأعطى أبا سفيان

وابنه معاوية ، وصفوان بن أمية ، وسُهيل بن عمرو وحُويطب بن عبد العُزّى ، والحارث بن هشام ، وكثيراً غيرهم ، ولم يَدَعْ لأحد من المؤلفة قلوبهم حاجة إلا قضاها ، وبذل للشعراء مثل ابن مِرداس حتى أرضاهم . فلم يكن عنصر الجود والبذل عنصراً مفقوداً فى سياسته صلى الله عليه وسلم .

جاء نفر إلى الرسول ، فقالوا : إنا بنينا مسجداً لذى العلة والحاجة ، والليلة المطيرة والليلة الشاتية ، وإنا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه ، فوعدهم أن يأتيهم بعد أن يرجع من غزوة تَبوك ، وكان قد عزم عليها ، فلما رجع علم أنهم يتآمرون فيه على الشر والفتنة ، فأمر به أن يُحرق ، فأحرق وفر من فيه . وهو مسجد الضِّرار الذى يقول فيه القرآن : «وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِين» .

وكذلك بلغه أن ناساً من المنافقين يجتمعون فى بيت سُوَيْلم اليهودى يثبطون الناس عن رسول الله والخروج معه لغزو الروم ، فبعث إليهم طلحة بن عُبَيْد الله ، وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم ، ففعل ، وتفرق من فى البيت .

فى هذين المثلين ترون محمداً الواسع الصدر اللين العريكة المتسامح يحرق مسجداً وبيتاً للفتنة والتآمر ، ذلك لأن محمداً رجل دولة حاذق ، يداوى كلّ حالة بما يناسبها من الرفق أو الشدة .

وكان يكره العُجْب والتظاهر ، وليس فى كلّ حياته شىء منه ، ولكنه أمر به حين دخل إلى مكة بعد هدنة الحديبية ، وقد تحدثت قريش أن محمداً وأصحابه فى عُسْر وضعف ، فصَفُّوا له عند دار النَّدْوة ، لينظروا إليه وإلى أصحابه ، فلما دخل رسول الله المسجد اضطبع بردائه ، وأخرج عضد يده اليمنى ، ثم قال : رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة ، ثم استلم الركن ، وخرج يهرول ، ويهرول أصحابه معه ، حتى إذا واراه البيت منهم ، واستلم الركن اليمانى مشى حتى يستلم الركن الأسود ، ثم هرول لذلك ثلاثة أطواف ، ومشى سائرها ، وقد صنع ذلك لما بلغه من قولهم عن ضعفه وضعف أصحابه .

ولما حاصر الأحزاب المدينة ، ونقض بنو قريظة عهدهم ، وانتهى إلى النبى وأصحابه الخبر ، بعث سعد بن مُعاذ وسعد بن عبادة ومن معهم ليحققوا له الخبر ،

وقال لهم : إن كان حقًّا ما بلغنا عن هؤلاء القوم ، فالْحَنُوا لى لحناً أعرفه ، ولا تفُتُّوا فى أعضاد الناس ، وإن كان الوفاء فيما بيننا وبينهم ، فاجهروا به للناس . فلما رجعوا سلموا على الرسول ، ولّحوا إليه بأن قريظة غدرت بعهده ، فقال صلى الله عليه وسلم : الله أكبر ، أبشروا يا معشر المسلمين .

فأنتم ترون فى هاتين القصتين حكمة القائد الأعلى فى بث الرعب فى نفس العدو بالتظاهر بالقوة ، والمحافظة على الروح المنوى عند الأنصار ، بالتظاهر بعدم الاكتراث ، والتصغير من شأن العدو .

كان صلى الله عليه وسلم حسن الاستخبار ، حسن التكتم للأسرار ، وكان من بعض ما يلجأ إليه من إخفاء حركاته العسكرية أن يكتب للقائد كتاباً يأمره فيه ألا يفضه إلا بعد أن يصل إلى مكان معين ، أو بعد أن يسير زمناً معيناً .

كان ثابت الرأى ، صادق العزيمة ، ما دخله عُجْبٌ ولا زَهْو ، ذهب بسياسة اللين إلى منتهى حكمته ، ولجأ إلى القتال لما لم يبق إلا القتال دفاعا عن النفس والعقيدة ، فأظهر فى الصبر واللين آيات السياسة ، وفى الجهاد والقتال غايات البراعة اتسع صدره للرجال والحوادث ، فأثر بشخصه وقوله وعمله فى جميع من حوله ، ومن اتصل به ، فكان مدرسة الرجال ، أخرجت من فتحوا الأرض ، ونظموا الممالك ممن لم يشتغلوا فى مكيدة ، ولا استعجزوا فى شدة .

من آثار دعوته

هذا الموضوع لا يلمّ أطرافه إلا مجلدات ، ولذلك عزمت على حصره فى دائرة يسمح بها هذا الفصل الموجز ، فلا أتعرّض إلا للآثار الخالدة للدعوة المحمدية ، الآثار التى لا يحدها مكان ولا زمان ، وأن أتخير منها ما هو واضح ، وما هو موضع إعجاب الناس كافة ، مهما اختلفت عقائدهم أو مذاهبهم ، ولَعَلِّى بهذا أوضح صورة أخرى لبطل الأبطال صلى الله عليه وسلم تكمل تلك النواحى البارزة فى حياته الخالدة .

١ — فى المجتمع

وأول ما خطر أن أوجه التفكير إليه ، هو أثر هذه الدعوة من الناحية الاجتماعية ، فى شعب لم يكن يصلح لشىء ، فأصبح فى بضع سنين صالحاً لحمل الرسالة التى وصلت إلى أطراف المشرق ، فى سنين معدودة ، هى أقلّ من عشرين سنة .

كان الأثر البارز السريع لهذه الدعوة تغيير أمة تغييراً شاملاً حاسماً ، بحيث أصبحت شيئاً آخر ، تلك الأمة التى نشأت فيها الدعوة : الأمة العربية .

كان العرب قوماً فوضى ، فى قفر من الأرض ، موضع احتقار المتمدينين من الفرس والرومان ، وآخر أمة يرجى فيها خير وينتظر لها أمر . كان العرب فى جاهليتهم قبائل متنازعة على الحياة ، متنافسة فى السؤدد ، يتنازعون على مواقع الغيث ومنابت العُشب ، كلّ قبيلة تعتزّ بقوتها ، وتفتخر بأنسابها ومآثرها ، وما فخرها وعزّها إلا فى أنها أغارت فغلبت ونهبت ، وأنها ظلمت وأفسدت ، فالظلم والنهب عندها مَحْمَدة وهو من أغراض الحياة .

انظروا إلى قول عمرو بن كلثوم :

بُغَاةً ظـالمين وما ظُلِمْنا ... ولكنّا سَـنَبْدَأُ ظالمينا

وقول زهير :

وَمَنْ لا يَذُدْ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلاَحِهِ ... يُهَدَّمْ وَمَنْ لاَ يَظْلِمِ النَّاسَ يُظْلَمِ

وانظروا قول القَطَامىّ ، وهو شاعر إسلامى يصف بقية الجاهلية فى القبائل الإسلامية :

فمن تكن الحضارةُ أعجبتْه ... فأىَّ رجالِ باديةٍ ترَانا
ومَنْ ربطَ الجحاشَ فإن فينا ... قَنًا سُلُبًا وأفراسًا حِسانا
وكُنَّ إذا أغِرنَ على جَنَابٍ ... وأعوزهنّ نَهْبٌ حيثُ كانا
أغَرْنَ من الضِّباب على حُلُولٍ ... وَضَبَّةَ إنَّهُ مَنْ حَانَ حَانَا
وَأحْيَانًا عَلَى بَكْرٍ أخينا ... إذا ما لَمْ نَجِدْ إلّا أخَانَا

هذا الشعر يصوّر لنا الحالة العقلية التى كانت عليها القبائل العربية ، ويدلنا على عظم الدعوة التى جعلت من قوم يفخرون بنهب أخيهم ، قوماً يعتزون بنشر السلام والقانون ، والعدل بين الأبيض والأسود فى آسيا وإفريقية ، هؤلاء الجفاة المتنابذون قد أصبحوا فى جيل واحد رسل الحضارة والنظام . كان الرجل منهم لا يعترف إلا بقبيلته ، فإذا تنازعت لا يعترف إلا بالبطن الذى ينتسب إليه ، وينكر على غير عشيرته حق الحياة . وكان أفراد العشيرة لا يتعاونون ، ولا يتكاتفون على خير عام ، بل لا يفهمونه ، لأنهم ينكرون وجود الأمة العربية إنكارهم للبشرية . ويرون الحياة قائمة على الخصومة والعداء لكل أحد خارج عن نطاق العشيرة ، فكانت العشيرة على هذا الاعتبار عصابة متكافلة على حماية نفسها ، وإتيان الشر ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ، والاعتزاز بالقدرة عليه ، وأنها تأتيه دائماً ، فجاءت الدعوة المحمدية تنقض كل ما يتمسك به العربى من هذه المواريث ، فحلت هذه العصابة الموجهة للشر باسم العشيرة ، وأحلت محلها الأمة ، وأقامت الحقوق البشرية ، وجعلت التعاون على البر ، والتكافل على النظام العام ، والاتحاد على الفكر السامى والعقيدة الطاهرة مكان علاقة الدم التى تربط بين الناس فى سفك الدم ، ونهب ما بأيديهم ، فقلبت بذلك نظرة العرب إلى نقيضها ، وجعلتها نظرة إنسانية إلهية ، بعد أن كانت بهيمية وحشية ، أحلت سلطان الشريعة فوق كل سلطان ، وجعلت هيمنة الدولة للخير العام فوق كل هيمنة ، وذهب القصاص الظالم ، وقام القصاص العادل ، وصارت المسئولية الفردية للعشيرة ، مكان المسئولية الاجتماعية لها :

« وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » « كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ » . « وَأَن لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى » وصارت العزة للشرع القاهر ، والسلطان القائم عليه ، وحُرِّمت دعوى الجاهلية : يا لَفُلانٍ ، وأصبح كل داع فللشرع دعوته ، وبالقانون انتصاره ، وبالعدل اعتصامه

برزت المسئولية الشخصية ، فما يغنى عن أحد دعوى الجاهلية ، ولا يغنى عن أحد فى ميدان العمل نسبه ولا حسبه ولا جاهه ولا ماله « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » . « إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمٰوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ » .

أصبح الناس بالدعوة المحمدية سواء ، لا شريف ولا وضيع ، خيرهم أحسنهم عملا ، وسيدهم أنفعهم ، وأكرمهم أتقاهم « يٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ » . انظروا إلى محمد صلى الله عليه وسلم فى خطبة الوداع ، يعلن هذه المساواة للعرب على أنها للبشر كافة « أيها الناس كلكم لآدمَ وآدمُ من تراب ، لا فضل لعربىٍّ على عجمىٍّ إلا بالتقوى » .

تلك هى الكلمة الخالدة التى كانت دستور الحكم فيما فتح العرب من الأرض ، فجعلت الفتح العربى بعيداً من رفعة قوم على قوم أو جنس ، فلم يصبه ما أصاب غيره من الفتوح ، وبقيت آثاره خالدة فى المشرق والمغرب .

قضت الدعوة المحمدية على التنافس والغلب بالكيفية التى سقتها ، وأحلت هذا التنافس والغلب لإقرار الحق ، وبسط الخير ، ولم يبق فى الشرع الذى قبله العرب إلا تنافس فى الأعمال الصالحة « فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » .

وهكذا حلت الأمة محل القبيلة ، والعدل مقام الغلبة ، والمساواة مكان التفاضل والعمل الصالح مكان الفخر بالآباء ، ومُلِئَت القلوب حباً وسلاماً ، بعد أن كانت مملوءة

بغضاً ونزاعاً « قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ . . . إلى قوله : لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ[1] » .

كان قلب العربى مُوَزَّعا بين آلهة شتى ، قد التبست عليه صفاتها وأفعالها ، يفزع إليها حيناً ، وينفر منها حيناً ، ويلتمس منها الخير ، فإن لم يظفر به هجرها وسبها ، كما يفعل الآن زُنوج السُّودان مع « كجورهم » يسألونه المطر ، ويصبرون عليه ، فإذا يئسوا من الرحمة قتلوا « الكجور » وهو معبودهم .

لم تكن أمام العربى سبيل واضحة للعمل فى هذه الحياة ، كما لم تكن له خطة بينة لمعاملة الناس ، فلقنته الدعوة المحمدية الإيمان بإله واحد ، وهدته إلى الحلال والحرام فى كل صغيرة وكبيرة ، فصار على بينة من ربه وعلى بينة من نفسه ، وعلى بينة من عمله .

وعقيدة المسلم علمته التوحيد فى كل شىء ، علمته أن الله واحد ، وأن أصل البشر واحد ، وأن الناس سواسية كأسنان المُشْط ، وأن الأمم جميعاً سواء ، وأن الأديان التى جاء بها الرسل واحدة ، لا تختلف فى حقائقها ومقاصدها ، « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى . . . » الخ . ووحدت له الخُطّة التى يعمل عليها فى خاصة نفسه ومعاملة الناس . وحدت الدعوة المحمدية نفس العربى ، ثم وحدت العرب جميعاً ، وصاغت منهم أمة واحدة ، وحملتهم رسالة التوحيد إلى الناس كافة ، ليجعلوهم أمة واحدة .

فهذه الأمة الواحدة المؤلفة من أرق الموحدين هى التى انبعثت بسبب هذه الدعوة ، فلم يقف فى سبيلها شىء ، لا كثرة العدد ، ولا قوّة السلاح ، ولا العقائد الموروثة ، ولا عظمة الملوك ، ولا تجبر الرؤساء ، بل كانت قدَراً من الله بلغ غايته ، ومن ذا يرد على الله القدر ؟ !

هذا التوحيد هو عندى أظهر معجزات الدعوة المحمدية . وليدرك الناس وجه الإعجاز ، يجب أن ينظروا الآن إلى جزيرة العرب نفسها وقد شملها الإسلام قرونا ، ثم عادت فيها سيرة الجاهلية بحالة أخف كثيراً ، بل أهون مائة مرة مما كانت عليه

---

(١) الآيات ١٥١، ١٥٢، ١٥٣ من سورة الأنعام .

قبل ظهور رسالة التوحيد فيها ، ولْيُقَدِّرْ كُمْ يلقى الذى يريد أن يبعث هذه الأمة مرة أخرى من عَنَت ؟ إن كثيراً من المصلحين ليتحطمون على عتبة الإصلاح قبل أن يصلوا إلى شىء مما وصلت إليه الدعوة المحمدية فى بضع سنين . إذا تصورتم الحالة الحاضرة ، وقستموها على الحالة وقت ظهور الدعوة يمكنكم أن تتصوروا أثر الدعوة المحمدية وقوتها وفضلها على هذه الأمة ، وعلى الناس كافة .

جاءت الدعوة المحمدية مع رسالة التوحيد هذه برسالة أخرى ، هى رسالة التحرير ، وتركت فى هذه أثرها الخالد فى الأمة العربية وجميع الأمم كما تركت فى الأولى ؛ فصرخ مؤذن هذه الرسالة : الله أكبر ! وتضاءلت بهذه الصرخة كل عظمة ، وكل سيطرة أمام عظمة الله وسيطرته ، وتحررت النفوس من الأوهام الباطلة ، والعقائد الكاذبة ، وصارت العبودية خالصة لله ، يتساوى الناس فيها ، ويتحررون بذلك من سواها .

وهذا الذى انفرد بالسلطان والسيادة وحق العبودية هو الله « هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً » هو الله « وَاللهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » هو « اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ » .

بهذه المعانى السامية ، والعبارات القوية ، بهذه الآيات الكريمة وأمثالها تحررت النفوس من العبودية لغير خالقها البَرِّ الرحيم بها ، هاديها إلى النور وإلى صراط مستقيم .

وكان الناس قبل الدعوة المحمدية عبيداً للملوك والزعماء ، عبيداً للرؤساء الدينيين ، عبيداً للأوهام والخرافات ، عبيداً لملاك الأرض وملاك الثروة فتحرروا بهذه الدعوة المحمدية ، تحرروا فى أبدانهم ، وأعظم من ذلك أن تحررت نفوسهم بما وهبت لها الدعوة من عقيدة الخلود وعزته ، وأن عملها ليس أثراً بائداً بل مسجلا خالداً خلود قوانين الله فى خليقته .

علمت الدعوة المحمدية الناس أن النفع والضر بيد الله وحده ، وأن لا واسطة بين الإنسان وربه ، وأن ربه أقرب إليه من حبل الوريد[١] ، وأنه معه حيثما كان ، وأن ليس لأحد سلطان على قلبه ، وليس للرسول نفسه إلا التبليغ والتعليم « فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ » ، « فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِم حَفِيظاً » .

بهذا أدرك الإنسان مكانته ، ونال حريته فى عقله وقلبه وفكره وعمله ، وبقى للدعوة المحمدية أثرها الخالد فى توحيد الناس وتحريرهم .

وليس أجمع لدرجات نمو النفس المسلمة من وصف محمد لنفسه ، وهو كما رواه علىّ : « المعرفة رأس مالى ، والعقل أصل دينى ، والحب أساسى ، والشوق مركبى ، وذكر الله أنيسى ، والثقة كنزى ، والحزن رفيقى ، والعلم سلاحى ، والصبر ردائى ، والرضا غنيمتى ، والفقر فخرى ، والزهد حرفتى ، واليقين قوتى ، والصدق شفيعى ، والطاعة حسبى ، والجهاد خلقى ، وقرة عينى فى الصلاة » .

* * *

٢ — فى الفـــــرد

ولكى نستعين على تصور هذا الأثر فى الفرد لنستحضر أمامنا مثلا عمر ابن الخطاب .

كان عمر فى جاهليته فتى من فتيان قريش ، يغشى مجالس السوء ، وبؤر الشر ، وكانت مكة فى ذلك العصر ممتازة بين حواضر الجزيرة بترفها ومنكرها ، تجذب طلاب الطرب واللهو ، ولم يكن عمر فى هذه المدينة شاذًّا ، بل كان مُعْلَما بالفتوة والغلظة ، معروفا بالقسوة والشراسة ، مستعدًّا فى كل الحالات للتسلط بالأذى على من يخالفه ، ولإثارة الفتنة والشغب فيما جل أو صغر ؛ لذلك كان من أخطر

---

(١) حبل الوريد : عرق فى العنق . أى نحن أعلم بحاله ممن كان أقرب إليه من حبل الوريد تجوز بقرب الذات لقرب العلم ، لأنه موجبه ، وحبل الوريد مثل فى القرب . (انظر تفسير البيضاوى) .

فتيان مكة على الدعوة المحمدية ، وأنشطهم فى أذى أتباعها ، فلم يسلموا من لسانه الجارح ، ويده الباطشة . ولما رأته ليلى بنت أبى حنتمة وله رقة لم تكن تراها ، ذكرت ذلك لرجل من المسلمين ، فقال لها : أطمعت فى إسلامه ؟ ! إنه لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب . . . هذا الذى لم يكن تلاميذ محمد يطمعون فى هدايته أكثر من طمعهم فى هداية الحمار ، هو الذى جذبته الدعوة ، فلما هذبته وصقلته ، أخرجت منه عمر أمير المؤمنين ، قاهر الفرس والروم ، وجعلت منه المثل الكامل ، فى الرفق والإنصاف ، والعدل ، وأكبر القضاة والسياسيين والملوك فى تاريخ البشر .

فعلت الدعوة المحمدية فعلها فى الفرد ، ثم شمل سحرها الجماعة ، فبدلت الناس غير الناس ، والأرض غير الأرض .

خلصت الفرد من سلطان العقائد الباطلة ، وأصلحت قلبه وفكره بالعقائد الصحيحة ، وهذبت نفسه بالشرائع القويمة ، والسنن الصالحة ، والقدوة الحسنة التى وجدها فى المثل الأعلى ، فى محمد، صلى الله عليه وسلم : « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ » .

أقرت الدعوة المحمدية فى نفوس أصحاب محمد حب العدل وحب الإنصاف ، فى بيئة لا تعرف الحق إلا للقوة ولا تدين بالإنصاف إلا للسيف ، فوطأت النفوس للحق . انظروا إلى عمر بعد أن هذبته الدعوة ، تعترضه امرأة وهو أمير المؤمنين يخطب الناس ، فيمسك من فَوْره ، ويقول : أصابت امرأة وأخطأ عمر ! وانظروا إليه وقد شَجّ رأسَ أخته فى الجاهليه يبكى وهو أمير المؤمنين لرؤية بائس ، ويخشى أن يلقى الله وفى الناس بائس .

تلك آثار الدعوة فى نفوس جُفاة العرب ، قد جعلت من رعاة الإبل والشاء وصغار التجار فى مكة ، والفلاحين فى المدينة ، رجالا ، كلما احتاج تاريخها إلى واحد منهم وجده مهيأ للإمارة على الناس من كل الأجناس ، كأنما نشأ فيها ، ودرج لها . رجالاً قوّامين بالقسط ، كما أراد القرآن : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلهِ شُهَدَاءَ بِالقِسْطِ ، وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا ،

اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » . « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ » .

وليس نجاح الفتح العربى ، وانتشار الدعوة إلا أثراً لسحرها فى تغيير النفوس وتوجيهها للخير ، ولولا رجال أعدتهم المدرسة المحمدية للمثل العليا ، أعدتهم لإرشاد البشر وقيادته وحكمه ، لما تجاوز الفتح الإسلامى الجزيرة العربية ، ولذهبت آثاره بموت الرسول وارتداد الأعراب ، ولكن الشباب الذين طبعتهم الدعوة بطباعها استمروا يفيضون على جيلهم ما أُودِعوا من فيض الرسول ثلاثين سنة بعد وفاته ؛ فأبو بكر وعمر وعثمان وعلىّ ، الخلفاء الراشدون ؛ لم يكونوا إلا شباب الرسالة وقت أن أسرّها ثم جهر بها محمد للناس .

وليتبين لنا واضحاً أثر الدعوة المحمدية فى نفوس الشباب الذين هاجروا للحبشة ، وخالفوا آباءهم وكبراءهم فى سبيل عقائدهم ، نذكر لكم موقف جعفر بن أبى طالب أمام النجاشى فهو موقف يدل على امتلاك الدعوة المحمدية لنفوس من اجتذبتهم ، كما يبين لنا موضوع الدعوة نفسها ، كما فهمها المهاجرون والمهاجرات ، بل كما فهمها أنصارها فى ذلك العصر .

خرج أولئك السابقون لتلبية الرسول ومعهم من الفتيان والفتيات مَنْ ينتسبون لمختلف البطون فى قريش ، ويتصلون بالقرابة لأعاظم رجال مكة ، وأشد خصوم الدعوة ، وفيهم أبناء وبنات لأمثال المغيرة ، وسهيل بن عمرو ، وأمية بن خلف ، فبعثت مكة فى أثرهم رجلين من دُهاتها : عمرو بن العاص ، وعبدَ الله بن أبى ربيعة . ومعهم هدايا مما يَسْتطرف النجاشى من متاع مكة ، له ولكلّ بطريق[1] من بطارقته ، وأوصَوْهما أن يدفعا لكلّ بطريق بهديته قبل أن يكلما النجاشى ، ثم يسلما النجاشى هديته ، ويسألاه تسليم اللاجئين .

فلما وزعا الهدايا قالا لكلّ بطريق منهم : قد أوى إلى بلد الملك منا غِلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينكم ، وجاءوا بدين مبتدع ، لانعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشرافُ قومهم ، من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم

(١) البطريق : القائد من قواد الروم .

ليردّوهم إليهم ، فإذا كلّمنا الملك فيهم ، فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ، ولا يكلمهم ، فإن قومهم أعلى بهم عيناً ، وأعلم بما عابوا عليهم . فقالوا لهم : نعم . ثم سلما للنجاشى هداياه ، وقالا له مثل الذى قالا للبطارقة ، فأشار البطارقة بتسليمهم ، ولـكن النجاشى أبى أن يأمر بذلك حتى يسمع قول المهاجرين ، فدعاهم وسألهم : ما هذا الدِّين الذى فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا فى دينى ، ولا دين أحد من هذه الملل ؟ فقام جعفر ، وكان اللاجئون قد اختاروه ، واتفقوا على أن يقول ما علموا ، وما أمر به النبىّ ، كائنا فى ذلك ما هو كائن . فقال : أيهـا الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الرحم ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوىّ منا الضعيف ، فـكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا ، نعرف نسبه ، وصدقه ، وأمانته ، وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحّده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحُسن الجوار ، والـكفّ عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، فصدقناه وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به ، وحرّمنا ما حرّم علينا ، وأحللنا ما أحَلّ لنا ، فعدا علينا قومنا ، فعذّبونا ، وفتنونا ، وضيّقوا علينا الخِناق ، فخرجنا إلى بلادك ، ورغبنا فى جِوارك ، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك .

فقال النجاشى : هل معك مما جاء به عن الله من شىء ؟ فقال جعفر : نعم ، قال النجاشى : فاقرأه ، فقرأ صدراً من « كهيعص » ، فبـكى النجاشى ، ثم قال : إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة .

هذه هى الدعوة كما فهمها شباب ذلك العصر ، بل كما فهمها أشدُّ الناس تعلقاً بهـا ، وهذا هو أثرها منطبعاً فى نفس ذلك الشابّ القرشىّ ، يحدث عنها ملـكا من الملوك بثقة وبقوّة .

إنـكم لتلمسون فى كلمات جعفر الموجزة صورة كاملة للدعوة المحمدية ، والمجتمع الذى نشأ عنها ، فقد بدلت الدعوة وجهة نظر الفرد للحياة تبديلا تامًّا ، كما قلبت

أوضاع الاجتماع العربى إلى عكس ما اصطلح الناس عليه ، وابتدعت كما يقول رسل قريش جديداً لم تعرفه العرب ، ولا غير العرب .

ذلك الجديد هو الرسالة المحمدية ، وأثرها هو الانقلاب الذى شمل العرب وجيرانهم ولازلنا ولا يزال الناس فى آثاره حتى آخر الدهر .

ظفرت الدعوة وطأطأت كما يقول « هيل » أمة لإرادة رجل واحد ، لأنه نفخ فيها من روحه إيماناً قوياً سامياً وأحل فى قلبها الفضيلة خالصةً نقيةً ، ووجهها على جادة العظمة والفتح العالى . ولقد كان الاتحاد والتعاون منكراً لا يعرفه العرب إلا فى حدود العشيرة ، وكان الكبر والفخر والجاه والمال أسمى ما يتطلع الناس إليه ، فلما نجحت الدعوة المحمدية قامت وحدة العرب على تضامن الأغنياء والفقراء والأقوياء والضعفاء ، فأصبحت المؤاساة حقًّا مفروضاً على الأغنياء ، عليه يقوم تكافل المجتمع ، وعليه تقوم الدولة التى ولدتها الدعوة الجديدة .

تبدلت نظرة الفرد للحياه تبدلا تامًّا ، وانقلب النظام الاجتماعى بما ابتدع الإسلام من الأصول ، وما وضع من الشرائع .

وقد عبر العلامة « هيل » فى كتابه « حضارة العرب » عن أثر الدعوة المحمدية بهذه الكلمة القوية .

« إن جميع الدعوات الدينية قد تركت أثراً فى تاريخ البشر ، وكلّ رجال الدعوة والأنبياء قد أثروا تأثيراً عميقاً فى حضارة عصرهم وأقوامهم ، ولكنا لا نعرف فى تاريخ البشر أن ديناً انتشر بهذة السرعة ، وغيَّر العالم بأثره المباشر ، كما فعل الإسلام ؛ ولا نعرف فى التاريخ دعوة كان صاحبها سيداً مالكاً لزمانه ولقومه كما كان محمد .

لقد أخرج أمة إلى الوجود ، ومكن لعبادة الله فى الأرض ، وفتحها لرسالة الطُهْر والفضيلة ، ووضع أسس العدالة والمساواة الاجتماعية بين المؤمنين ، وأحلّ النظام والتناسق والطاعة والعزّة فى أقوام لا تعرف غير الفوضى » .

تلك بعض آثار الدعوة المحمدية فى الفرد وفى الجماعة ألمنا بها إجمالا فى هذا الفصل من هذا الكتاب ، وقد فصلنا هذا الإجمال فى (الرسالة الخالدة) .

وصف صورته

أما بعد ، فإن كل ماتقدم كان وصفاً للمعانى الإلهية والإنسانية الفائقة التى كانت تعمر عقل بطل الأبطال وخاتم النبيين وقلبه ، وكانت مِلاك روحه وقوام فكره وخلُقه ، وهى سر الله الخالق فى الإنسان الكامل الذى جعله قمة هذا النوع الإنسانى ومنار الأسوة والقدوة لأفراده وأبطاله فيما أعقبه من الدهور .

ولكن حب البشر لرؤية « الجسم » الذى تمثلت فيه هذه المعانى والأسرار يحتاج إلى تكميل الصور المعنوية التى رسمتها فصول هذا الكتاب بوصف الصورة الجسمية التى كانت وعاء لهذه المعانى والأسرار .

وها هى ذى كما وصفها علىٌّ كرم الله وجهه . قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بالطويل ولا بالقصير ، ضخم الرأس واللحية ، شَثْن الكفين والقدمين (أى أنهما إلى الغلظ أقرب) ضخم الكراديس (ألواح الأكتاف) مُشْرَبًا وجهه حمرة ، طويل المَسْرَبة (الشعر مابين السرة واللَّبة) إذا مشى تكفأ تكفُّؤًا (أى يميل إلى الأمام) كأنما ينحط من صَبَب (انحدار) ، لم أر قبله ولابعده مثله ! وكان أدعج العينين (الدعَج شدة السواد وشدة البياض) سَبْط الشعر (سهلا غير ملبد) سهل الخدين (غير مرتفع الوجنتين) ذا فروة (ما وصل إلى شحمتى الأذن من الشعر) كأن عنقه إبريق فضة ، وإذا التفت التفت جميعا ، كأن العرق فى وجهه اللؤلؤ الرطب لطيب عرقه وريحه » .

هذا هو وصف (صدفته) الشريفة التى ضمت لؤلؤته اليتيمة الفذة ! وفيها تستبين مخايل العظمة وشواهد الكمال التى أرادها الله عز وجل لأجسام النوع الإنسانى . ولاعجب بعد هذا الكمال الجسمانى والروحانى أن يكون كل من رآه بديهةً هابه ، وكل من خالطه أحبه ذلك الحب الباذل الفادى المؤمن . . . صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

فهرس